□ علوُّ الهمَّةِ في مُحَاسَبَةِ النفسِ □ والمجاهَدَةِ والمُعَاتَبَة

اعلم يا أخي أنَّ « اللهَ قائمٌ علىٰ كلّ نفسٍ بما كسبتْ ، محاسبٌ علىٰ النقيرِ والقِطْمِير ، والقليل والكثير من الأعمال ، وإنْ خَفيَتْ .

وأربابُ البصائر عرفوا أنّ الله تعالىٰ لهم بالمرصاد ، وأنهم سيُناقَشون في الحساب ، ويُطالبون بمثاقيل الذَّرِّ من الخَطَرَات واللّحَظَات ، وتحقَّقوا أنه لا يُنجيهم إلَّا لُزوم المحاسبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات .

فَمَن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب ، خفَّ في القيامة حسابُه ، وحضر عند السؤال جوابُه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومَن لم يحاسب نفسه دامتْ حسراتُه ، وطالت في عَرَصات القيامةِ وَقَفَاته ، وقادتْه إلى الخِزْي والمَقْتِ سَيِّئاته .

دَرَجَاتُ المُرَابَطَة :

فلمّا انكشف لهم ذلك عَلِمُوا أنه لا يُنجيهم منه إلَّا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة ، فقال عزّ مِن قائل : ﴿ **يَٰأَيُّهَا الذين آمنُوا اصبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا ...** ﴾ الآية [آل عمران : ٢٠٠] ، فرابطوا أنفسهم أوَّلًا : بالمشَارَطة ، ثُمّ بالمراقَبَة ، ثم بالمحاسَبة ، ثم بالمعاقَبَة ، ثم بالمجاهَدَة ، ثمّ بالمعاتَبَة . فكانت لهم في المرابطة ستُّ مقاماتٍ »[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٤١٧ - ٤١٨ .

المقام الأوَّلُ من المرابطة : المُشَارَطَة :

العقل هو التاجر في طريق الآخرة ، ومَطْلبه وربْحُه : تزكية النفس ؛ لأنَّ بذلك فلاحَها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **قَدْ أفلحَ مَن زَكَّاهَا وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها** ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] ، وفلاحُها إنّما يكون بالأعمال الصالحة ، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ، إذْ يستعملها ويستسخرها فيما يزكّيها ، كما يستعين التاجر بشريكه وغُلامه الذي يتَّجِر في ماله ، وكما أنّ الشريك يَصير خصْمًا منازِعًا يُجاذبه في الرِّبح ، فيحتاج إلى أنْ يُشارِطه أولًا ، ويراقبه ثانيًا ، ويحاسبه ثالثًا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارَطة النفس أوَّلًا ؛ فيوظف عليها الوظائف ، ويشترط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ويحزم الأمر بسلوك تلك الطُرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها ، لم يَر منها إلَّا الخيانة ، وتضييع رأس المال كالعبد الخائن . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإنّ هذه تجارة ربحها بالفردوس الأعلىٰ وبلوغ سِدرة المنتهىٰ مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس : أهمُّ كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها مُحْتَقَرَة ، ومصيرها إلى التصرُّم والانقضاء ، ولا خيرَ في خيرٍ لا يدوم .

فَحتْمٌ على كلّ ذي حَزْم أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسَكَناتها ، وخطراتها وخطواتها ، فإنّ كلّ نَفَس من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسة يمكن أن يشتري بها كَنْزٌ من الكنوز لا يتناهىٰ نعيمُه أبدَ الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعةً خسرانٌ عظيم لا تسمح به نفْس عاقل .

فإذا أصبح العبد وفرغ من صلاة الصبح ، ينبغي أنْ يفرّغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس ، كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرّغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلّا العمر ، ومهما فني فني

رأسُ المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلَبِ الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأنسأ في أَجَلي وأنعم عليَّ به ، ولو توفاني لكنتُ أتمنَّىٰ أنْ يُرجعني إلى الدنيا يومًا واحـدًا حتىٰ أعمل فيه صالحًا ، فاحسَبي أنّك قد تُوُفِّيتِ ، ثم قد رُدِدتِ ، فإيّاك ثم إيَّاكِ أن تضيّعي هذا اليوم ، اجتهدي اليوم في أنْ تُعمـري خزانتك ، ولا تدعيها فارغةً من كنوزك ، ولا تميلي إلى الكسل والدَّعَة والاستراحة ، فيفوتكِ من درجات عِلِّيِّين ما يدركه غيرُك ، وتبقى عندك حسـرةٌ لا تفارقكِ وإنْ دخلتِ الجنة ، فألمُ الغبْن وحسرتُه لا يُطاق ، وإن كان دُون ألم النار ، وقد قال بعضهم : هَبْ أنَّ المسيء قد عُفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟! أشار به إلى الغبْن والحسـرة ، وقال الله تعـالىٰ : ﴿ **يومَ يجمعُكُمْ لِيوم الجَمْعِ ذٰلِكَ يومُ التغابُن ...** ﴾ الآية [التغابن : ٩] . فهذه وصيّته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنفْ لها وصية في أعضائه السبعة ، وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إليها ، فإنها رَعَايا خادمة لنفسه في هذه التجارة .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الأعضاء التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة ، ثم النوافل التي يقدر عليها ، ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتّب لها تفصيلها ، وكيفيّتها ، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كلّ يوم ، ولكنْ إذا تعوّد الإنسان شرْطَ ذٰلك على نفسه أيامًا ، وطاوعتْه نفسه في الوفاء بجميعها ، استغنىٰ عن المشارطة فيها ، وإن أطاعتْ في بعضها بقيتْ الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ، وعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيما يمرّ به ، والانقياد للحقّ في مجاريها ، ويحذّرها مَغبَّة الإهمال ويعظها ، فإن النفْسَ بالطبع متمرّدة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكنّ الوعْظ يؤثر فيها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وذكّرْ فإنَّ الذكْرىٰ تنفعُ**

المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] ، فهذه محاسبةٌ قبل العمل ، كما قال تعالىٰ : **﴿ واعلموا أنَّ اللهَ يَعلمُ ما في أنفسكم فاحذرُوه ﴾** [البقرة : ٢٣٥] ، وهذا للمستقبل .

المرابطة الثانية : المراقبة :

وهذه سنُفرد لها الفصل التالي .

سُئل ذو النونِ : بِمَ ينال العبدُ الجنة ؟ قال : بخمسٍ : استقامة ليس فيها زَوَغَان ، واجتهادٌ ليس معه سَهْوٌ ، ومراقبة الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهُّب له ، ومحاسبة نفسك قبل أنْ تُحاسَب .

المرابطة الثالثة : مُحَاسَبَةُ النفس :

قال تعالىٰ : **﴿ يَٰأَيُّهَا الذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ ولْتَنظرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾** [الحشر : ١٨] .

قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٤٢) : « قوله : **﴿ ولْتنظرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ ﴾** ، أي : حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وانظروا ماذا ادَّخَرْتُم لأنفسكم مِن الأعمال الصالحة ليوم معادكم ، وعرْضكم على ربّكم » .

« فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسَبًا على كلّ شيء ، حتىٰ على سمعه وبصره وقلبه ، كما قال تعالىٰ : **﴿ إنَّ السمْعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئِكَ كَانَ عنهُ مَسئولًا ﴾** [الإسراء : ٣٦] - فهو حقيقٌ أنْ يحاسِب نفسَه قبل أن يُناقَش الحساب »[1].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١٠١ .

تُحاسَبوا ، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، فإنه أهونُ عليكم في الحساب غدًا أن تحاسِبوا أنفسكم اليوم ، وتزيّنوا للعرض الأكبر ، يومئذٍ تُعرضون لا تخفىٰ منكم خافية »[١].

حَاسِبْ نَفْسَكَ لنفسك ؛ فإن غيرها من الأَنْفُس عليها حسيب غيرك .

ويحدثك عالي الهمة ، والحادي لمعارج القمّة ابن قيم الجوزية عن المحاسبة في أعلىٰ صورها فيقول : وجماع ذلك أن يحاسب نفسه على الفرائض ، فإنْ تذكَّر فيها نقصًا تداركه ؛ إما بقضاءٍ أو إصلاح .

ثم يحاسبها على المناهي ، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه ؛ بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .

ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فإنْ كان قد غفل عما خُلِق له ، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى .

ثم يحاسبها بما تكلّم به ، أو مشت إليه رجلاه ، أو بطشتْ يداه ، أو سمعتْه أذناه ، ماذا أردت بهذا ؟ ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجهٍ فعلته ؟ ويعلم أنه لا بدّ أن ينشر لكلّ حركة وكلمةٍ منه ديوانين : لمن فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول : سؤال عن الإخلاص ، والثاني : سؤال عن المتابعة .

طريقة محاسبة النفس :

يقول ابن القيم : « محاسبة النفس : نوعان : نوعٌ قبل العمل ، ونوعٌ بعده :

---

(١) إسناده صحيح موقوف ؛ أخرجه أحمد في الزهد ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن الجوزي في صفة الصفوة .

النوع الأول :

هو أنْ يقف عند أول همِّه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبيّن له رجحانه على تركه .

قال الحسن رحمه الله : رحم اللهُ عبدًا وقف عند همّه ، فإن كان لله : مضىٰ ، وإن كان لغيره : تأخَّر .

وشرح هذا بعضهم ، فقال : إذا تحرّكتِ النفس لعمل من الأعمال وهمّ به العبد ، وقف أولًا ، ونظر : هل ذلك العمل مقدور له ، أو غير مقدورٍ ولا مستطاع ؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يُقدم عليه ، وإن كان مقدورًا ، وقف وقفةً أُخرىٰ ونظر : هل فعْله خيرٌ له من ترْكه ، أو تركه خيرٌ له من فعْله ؟ فإن كان الثاني : تَرَكَه ولم يقدم عليه ، وإنْ كان الأول ، وقفَ وقفة ثالثة ونظر : هل الباعث عليه إرادةُ وجْه الله عز وجلّ وثوابه ، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ؟ فإن كان الثاني لم يُقدم ، وإن أفضىٰ به إلى مطلوبه ، لئلَّا تعتاد النفس الشرك . وإن كان الأول ، وقف وقفة أُخرىٰ ، ونظر : هل هو معان عليه ، أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوانٌ أمسك عنه ، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار . وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور .

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل .

النوع الثاني :

محاسبة النفس بعد العمل ، وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حقّ الله تعالىٰ ، فلم تُوقِعْها على الوجه الذي ينبغي .

وحقُّ الله في الطاعة ستةُ أمور ، وهي : الإخلاص في العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول فيه ، وشهود مشهد الإحسان فيه ، وشهود منّة الله عليه ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله .

الثاني : أن يحاسب نفسه على كلّ عمل تَرْكُه خيرٌ له من فعْله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمْرٍ مباح ، أو معتاد : لِمَ فعَله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة ، فيكون رابحًا ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ، فيخسر ذلك الربح ، ويفوته الظفر به ؟ انتهى »[١] .

يا عاليَ الهمَّة ، هذه أركانُ المحاسبة :

وللمحاسبة ثلاثة أركان :

أحدها : أن تقايس بين نعمة الله وجنايتك :

حين تقايس بين ما مِنَ الله وما منك ، فحينئذ يظهر لك التفاوت ، وتعلم أنه ليس إلّا عفوه ورحمته ، أو الهلاك والعطْب .

وبهذه المقايسة تعلم حقيقة النفس وصفاتها ، وعظمة جلال الربوبية ، وتفرُّد الربِّ بالكمال والإفضال ، وأنت قبل هذه المقايسة جاهلٌ بنفسك ، وبربوبية فاطرِها وخالقها ، فإذا قايستَ ظهر لك أنها منبعُ كلّ شرٍّ ، وأساس كل نَقْصٍ ، وأن حدّها : الجاهلة الظالمة ، وأنه لولا فضلُ الله ورحمته بتزكيته لها ، ما زكتْ أبدًا ، فكما أنها ليس لها مِن ذاتها وجود ، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود ، فليس لها من ذاتها إلّا العدم ؛ عدم الذات وعدم الكمال ، فهناك تقول حقًّا : « أَبُوءُ لك بنعمتك عليَّ ، وأَبُوءُ بذنبي » .

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات ؛ فتعلمْ بهذه المقايسة : أنهما أكبر

---

(١) إغاثة اللهفان [١ / ٩٧ - ٩٨] .. بتصرُّف .

وأرجح قدرًا وصِفةً . وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما مِنْك خاصّة .

وهذه المقايسة تشقُّ علىٰ مَن ليس له ثلاثة أشياء :

الأول : نُور الحكمة الذي نّور الله به قلوب أتباع الرسل ؛ فبقدْره ترىٰ التفاوت ، وهو العلْم الذي يميّز العبد به بين الحقّ والباطل ، والكامل والناقص ، ومراتب الأعمال ؛ راجحها ومرجوحها ، ومقبولها ومردودها ، وكلّما كان حظُّه من هذا النور أقوىٰ ، كان حظُّه من المحاسبة أكملَ وأتمَّ .

الثاني : سوء الظنّ بالنفس ؛ فحسن الظنِّ بالنفس يمنع من كمال التفتيش ، ويلبّس عليه ، فيرىٰ المساوئ محاسن ، والعيوب كمالًا .

فَعَيْنُ الرضا عن كلّ عيْبٍ كليلةٌ ... كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي المَسَاوِيَا

مَن أحسن ظنَّه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه .

الثالث: تمييز النعمة من الفتنة؛ فليفرّق بين النعمة التي يرىٰ بها الإحسان واللطف ، وبين النعمة التي يرىٰ بها الاستدراج ، فكم مِن مُستدرَج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه .

فإذا كملتْ هذه الثلاثة فيه ، عرَف حينئذٍ أنّ ما كان من نعم الله عليه يجمعُه على الله فهو نعمةٌ حقيقيّة ، وما فرّقه وأخذه عنه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة ، فلْيحذرْ .

فكلّ علْم صَحِبَه عمل يُرضي اللهَ سبحانه فهو مِنّة ، وإلّا فهو حُجَّة ؛ وكلّ قوّةٍ ظاهرةٍ وباطنة صحبها تنفيذٌ لمرضاته وأوامره فهو مِنّة ، وإلّا فهو حجّة .

وكلّ حال صَحِبَه تأثير في نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منّة ، وإلّا فهو حجّة .

وكلّ مالٍ اقترن به إنفاقٌ في سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء والشكور ، فهو منّة ، وإلّا فهو حجّة .

وكل فراغٍ اقترن به اشتغال بما يريد الربُّ مِن عبده فهو مِنّة عليه ، وإلّا فهو حجة .

وكلّ قبول في الناس ، وتعظيمٍ ومحبةٍ له ، اتصل به خضوع للربِّ وذلٌّ وانكسارٌ ، ومعرفة بعيْب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق ؛ فهو منّة ، وإلّا فهو حجّة .

وكلّ بصيرة وموعظةٍ وتذكير وتعريف من تعريفات الحقّ سبحانه إلى العبد اتصل به عِبرةٌ ، ومزيدٌ في العقل ، ومعرفةٌ في الإيمان ؛ فهي منّة ، وإلّا فهي حجة .

وكلّ حال مع الله تعالىٰ ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ؛ فهو منّة من الله ، وإنْ صحبَه الوقوف عندَه والرضا به ، وإيثار مقتضاه ، من لذّة النفس به ، وطمأنينتها وركونها إليه ؛ فهو حجّة .

فليتأمَّل العبد هذا الموضع العظيم الخطير ، ويميّز بين مواقع المنن والمِحن ، والحُجَجِ والنعم ، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواصّ الناس وأرباب السلوك .

الرُّكن الثاني مِن أركان المُحَاسَبة :

أنْ تميّز ما للحقّ عليك ؛ من وجوب العبودية والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية ، وبين ما لك وما عليك . فالذي لك : هو المباح الشرعي . فعليك

حق ، ولك حقٌّ . فأدِّ ما عليك يؤتِكَ ما لك .

الركن الثالث :

« أن تعرف أنَّ كلَّ طاعة رضيتَها منك فهي عليك ، وكلّ معصية عيّرتَ بها أخاك فهي إليك » .

فرضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنِّه بنفسه ؛ وجهله بحقوق العبودية .

فجهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله ، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به ؛ يتولّد منهما رضاه بطاعته ، وإحسان ظنّه بها ، ويتولّد من ذلك - من العجب والكبر والآفات - ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة ؛ من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف .

فالرضا بالطاعة من رُعونات النفس وحماقتها ، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عُقَيْبَ الطاعات ، لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه .

فبعد الصلاة لأرباب العزائم استغفارٌ ؛ ففي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفرَ ثلاثًا ، ثم قال : « اللهمَّ أنت السلامُ ، ومنك السلامُ ، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام » .

وبعد صلاة الليل استغفار ؛ قال تعالى : ﴿ **والمستغفرينَ بالأسْحار** ﴾ الآية [آل عمران : ١٧] .

وبعد إفاضتهم مِن عرَفاتٍ استغفارٌ ؛ قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا أفضْتُمْ مِن عرَفَاتٍ فاذكُروا اللهَ عندَ المَشْعَرِ الحرامِ واذْكُروهُ كمَا هداكُمْ وإنْ كنتُمْ مِن قبلهِ لَمِنَ الضالِّينَ * ثمَّ أفيضُوا مِن حيثُ أفاضَ الناسُ واستغفرُوا اللهَ**

إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ [البقرة : ١٩٨ - ١٩٩] .

وخاتمة الوضوء استغفار ؛ « سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، اللهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » .

وبعد أداء الرسالة والقيام بأعبائها أمر الله رسولنا ﷺ بالاستغفار ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [النصر : ١ - ٣] .

فهذا شأن مَن عرف ما ينبغي لله ، ويليق بجلاله من العبودية وشرائطها ، لا جهلَ أصحاب الدعاوي وشطحاتهم .

وقال بعض العارفين : متىٰ رضيتَ نَفْسَكَ وعملَكَ لله ، فاعلمْ أنه غير راضٍ به ، ومَن عرف أن نفسه مأوىٰ كلِّ عيب وشرٍّ ، وعمله عُرْضة لكلِّ آفة ونقْص ، فكيف يرضىٰ لله نَفسه وعمله ؟!

ولله دَرُّ الشيخ أبي مَدْيَنَ حيث يقول : مَنْ تحقَّق بالعبودية نظر أفعاله بعيْن الرياء ، وأحواله بعيْن الدعوىٰ ، وأقواله بعين الافتراء .

وكلّما عظم المطلوب في قلبك ، صغُرَتْ نفسك عندك ، وتضاءَلَتْ القيمة التي تبذلها في تحصيله ، وكلّما شهدتَ حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفتَ الله وعرفت النفسَ ، وتبيَّن لك أن ما معك مِن البضاعة لا يصلح للمَلِك الحقّ ، ولو جئتَ بعمل الثقلَيْن خشيتَ عاقبته ، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله ، ويُثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله .

قال ابن القيم : « التوبة بين محاسبتَيْن ، محاسبةٍ قبلها تقتضي وجوبها ،

ومحاسبةٍ بعدها تقتضي حفْظها »[١].

صفحاتٌ عَطِرَة في أقوال السلف عن المحاسَبَة وعلوِّ همَّتهم فيها :

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وخرجتُ معه ، حتى دخل حائطًا ، فسمعتُه يقول - وبيني وبينه جدار ، وهو في جوف الحائط - : عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين ! بَخٍ[٢] ! واللهِ لَتتقينّ اللهَ ابنَ الخطّاب ، أو لَيعذبنّكَ[٣].

أبو الدرْدَاء رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « لا يفقه الرجل كلّ الفقهِ حتى يمقُتَ الناس في جَنْب الله ، ثم يرجع إلى نفسه ، فيكون لها أشدَّ مقتًا »[٤].

وفي الزهد لأحمد : قال أبو الدرداء : « إنك لا تفقهُ كلَّ الفقه حتى ترىٰ للقرآن وجوهًا ، وإنك لا تفقه كلّ الفقه حتى تمقُتَ الناسَ في جنبِ الله ، ثم ترجع إلى نفسك ، فتكون لها أشدَّ مقتًا منك للناس » .

الأَحْنَفُ بنُ قَيْس :

عن سلمة بن منصور ، عن مولًى لهم ، كان يصحب الأحنف بن قيس ، قال : « كنتُ أصحبه ، فكان عامّة صلاته الدعاء ، وكان يجيء

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٦٩ - ١٧٦ بتصرف .

(٢) اسمُ فعل يُقال عند الرضا بالشيء .

(٣) إسناده صحيح متصل ، موقوف على عمر رضي الله عنه ، أخرجه أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس .

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا صـ ٤٦ ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .

بالمصباح ، فيضع أصبعه فيه ، ثم يقول : حَسْ . ثم يقول : يا حنيف ، ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا ؛ ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا ؟ »[١] .

رحمك الله أبا بحر ، ولله دَرّ مَن قال فيك : ما رأيتُ أحدًا أعظم سلطانًا على نفسه منه .

الحَسَـن البَصْـريّ :

قال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوّامَة** ﴾ [القيامة : ٢] : « لا تَلقىٰ المؤمنَ إلَّا يُعاتب نفسه : ماذا أردتُ بكلمتي ؟ ماذا أردتُ بأكْلتي ؟ ماذا أردتُ بشرْبتي ؟ والعاجز يمضي قُدُمًا ، لا يعاتب نفسه » .

وقال رحمه الله : رحمَ اللهُ عبدًا وقَفَ عند همِّه ؛ فإنْ كان لله مضىٰ ، وإن كان لغيره تأخَّرَ .

وقال رحمه الله : « المؤمن قوّام على نفسه ، يُحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسَبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر مِن غير محاسَبة .

إنّ المؤمن يفجأه[٢] الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لَمِن حاجتي ، ولكن واللهِ ما من صلة إليك ، هيهاتَ ! حِيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : هيهات ! ما أردتُ إلى هذا ، وما لي ولهذا ؟! ما أردتُ إلى هذا ، وما لي ولهذا ؟! والله ما أُعْذَر بهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلَكَتهم . إنّ المؤمن

---

(١) صفة الصفوة ٣ / ١٩٩ ، والإحياء ٥ / ٣٩٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٦ .
(٢) يفجأه الشيء : يأتيه على بَغْتة وغفلة .

أسير في الدنيا ، يسعى في فِكَاك رقبته ، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كلّه »[1].

وقال رحمه الله : « حادثوا هذه القلوب ؛ فإنها سريعة الذنوب ، واقرعوا هذه الأنفُس ؛ فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شرِّ غايةٍ ، وإنكم إن تعاونوها لا تُبقي لكم من أعمالكم شيئًا ، فَتَصَبَّرُوا وتَشَدَّدُوا ؛ فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم رَكْب وُقُوف ، يوشك أن يُدعَى الرجل منكم فيجيب ولا يَلْتَفُّ، فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم »[2].

وقال : « ابنَ آدم ، عن نفسك فكايسْ ؛ فإنك إنْ دخلتَ النار لم تَنْجَبِرْ بعدها أبدًا » .

وقال : المؤمن في الدنيا كالغريب ، لا ينافس في عزّها ، ولا يجزَع مِن ذلِّها ، للناس حال وله حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل .

وقال : إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله تبارك وتعالى[3].

قَتَادَةُ رحمه الله :

قال قتادة في قول الله تعالىٰ : ﴿ **وكانَ أمرُهُ فُرُطًا** ﴾ الآية [الكهف : ٢٨] : « أضاع أكبر الضيعة ، أضاع نفسه ، وعسى مع ذلك أن تجده

---

(١) محاسبة النفس صـ ٣٨ - ٣٩ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٣٤ ، والإحياء ٥ / ٩٣٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٥ ، والحلية ٢ / ١٥٧ .

(٢) الحلية ٢ / ١٤٤ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٣٦ ، ومحاسبة النفس صـ ٦٢ .

(٣) الحلية ٢ / ١٥٧ .

حافظًا لماله ، مُضَيِّعًا لدينه »[١] .

مَيْمُون بنُ مهْران :

قال رحمه الله : « لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً مِن الشريك لشريكه »[٢] .

وقال رحمه الله : « التقيُّ أشدُّ محاسبة لنفسه من سلطانٍ عاصٍ ، ومن شريك شحيح »[٣] .

مالِكُ بنُ دِينار :

قال رحمه الله : « رحم اللهُ عبدًا قال لنفسه النفيسة : ألستِ صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمّها ، ثم خطَمها ، ثم ألزمها كتاب الله ، فكان لها قائدًا »[٤] .

« وكان – رحمه الله – يقول لنفسه : إني والله ما أريدُ بك إلّا الخير. مرتين »[٥] .

إبراهيمُ التيْمي :

« أنت في الأمنية فاعملي » :

« قال سفيان بن عُيينة : قال إبراهيم التيمي : مثّلتُ نفسي في الجنة

---

(١) محاسبة النفس ٢ / ٣٢ .
(٢) الحلية ٤ / ٨٩ ، ومحاسبة النفس ٣٣ .
(٣) محاسبة النفس صـ ٣٤ ، والإحياء ٥ / ٣٩٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٥ .
(٤) الإحياء ٥ / ٣٩٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٦ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٤ .
وخطَمَها : أي قادها بكتاب الله ، فالخطام : هو الحبل الذي يُقاد به البعير .
(٥) محاسبة النفس صـ ٦٣ .

آكُلُ مِن ثمارها ، وأشرب مِن أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثلتُ نفسي في النار آكل من زقّومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلتُ لنفسي : أي نفسي ، أيَّ شيءٍ تريدين ؟ قالت : أريد أن أُردّ إلى الدنيا ، فأعملُ صالحًا . قال : فقلتُ : فأنتِ في الأمنية فاعملي »[١].

الحجّاج الثقفي :

« ما زال يقول : امرءًا . حتى أبكاني » :

قال مالك بن دينار : « سمعتُ الحجّاج يخطبُ ويقول : امرءًا وزَن نفسه ، امرءًا اتخذ نفسه عدوًّا ، رحم الله امرءًا حاسَب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، امرءًا آخذٌ بعنان عمله ، فنظر أين يريد ؟! امرءًا نظر في مكياله ، امرءًا نظر في ميزانه . فما زال يقول : امرءًا . حتى أبكاني » .

ويا ليت الحجّاج عمل بهذا .. فقد مضى إلى لحْده وإلى ربّه سفّاكًا غشومًا جبّارًا ظالمًا ، لو تخابثتِ الأمم ، فجاءت كلّ أمّة بخبيثها وجئنا به ، لَفُقْناهم .

خطب الحجّاج يومًا فقال : « يَٰأَيُّهَا الرجل ، وكلُّكم ذلكَ الرجل ، ذمُّوا أنفسكم واخطموها ، وخذوا بأزمَّتها إلى طاعة الله ، وكفوها بخطمها عن معصية الله » .

وقال : « رجل خطَم نفسه وذمّها ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعنجها[٢] بزمامها عن معاصي الله » .

(١) الزهد لأحمد ٤٣٤ ، والحلية ٤ / ٢١١ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٤ .

(٢) أي : جذبها وشدّها إلى طاعة الله ، بعيدًا عن المعاصي ، انظر : محاسبة النفس صـ ٣٧ .

وَحِكْمة مِن آل داود :

« وساعةٍ يُحاسِب فيها نفْسَه » :

عن وهب بن منبّهٍ قال : « مكتوب في حكمة آل داود : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربعِ ساعاتٍ : ساعةٍ يُناجي فيها ربّه ، وساعةٍ يحاسب فيها نفسه ، وساعةٍ يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويَصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه ، وبين لذّاتها ، فيما يحلّ ويحمد ، فإنّ في هذه الساعة عوْنًا على تلك الساعات ، وإجمامًا للقلوب[(١)].

وحقٌّ على العاقل أن لا يُرَىٰ ظاعِنًا[(٢)] إلا في ثلاث : زادٍ لميعاد ، أو مرمةٍ لمعاش[(٣)] ، أو لذّة في غير محرّم .

وحقٌّ على العاقل أنْ يكون عارفًا بزمانه ، حافظًا للسانه ، مقبلًا على شأنه »[(٤)].

الأسْود بنُ كُلثوم :

قال حميد بن هلال : كان الأسود بن كلثوم إذا مشى نظر إلى قدميْه . قال : ودور النساء إذ ذاك فيها تواضع ، فعسىٰ أن يفجأ النسوة ، فيقول بعضُهن لبعض : كلّا ، إنه الأسود بن كلثوم ، إنه لا ينظر ، فلما قرب غازيًا ، قال : اللهم إن هذه النفس تزعم في الرخاء أنها تحبّ لقاءك ، فإن كانت صادقةً فارزقْها ذاك ، وإن كانت كاذبة فاحملها عليه ، وإن كرهتْ فاجعلْ ذلك

---

(١) إجمامًا للقلوب : يعني ترويحًا وتخفيفًا لها .

(٢) ظاعنًا : يعني مسافرًا ومرتحلًا .

(٣) يعني : جلب ما يقتات به ، ويعيش عليه من طعام وشراب وملبس .

(٤) محاسبة النفس صـ ٣٦ .

قتلًا في سبيلك ، وأطعمْ لحمي سباعًا وطيرًا . قال : فانطلق في طائفة مِن ذلك الجيش الذي خرج فيه ، حتى دخلوا حائطًا فيه ثلْمة[١]، وجاء العدو حتى قام على الثلمة ، فنزل عن فرسه ، وضرب وجهه فانطلق غايرًا ، ثم عمد إلى ماء في الحائط ، فتوضأ منه وصلّى . قال : تقول العجم : هكذا استسلام العرب . فلما قضى صلاته قاتلهم حتى قُتل ، وعظم الجيش ذلك على الحائط ، وفيهم أخوه ، فقيل لأخيه : ألا تدخل الحائط ، فتنظر ما أصبتَ من عظام أخيك ، فتجبه[٢] ؟ قال : ما أنا بفاعل شيئًا دعا به أخي[٣] ، فاستجيب له[٤].

ورجلٌ من الصالحين يقول لنفسه : لَأَعرضنَّكِ علىٰ اللهِ : أخذَكِ أو تركَكِ :

قال عبد الله بن قيس أبو أمية الغفاري : « كنا في غزوة لنا ، فحضر عدوُّهم ، فصيح في الناس ، فهم يثوبون إلى مَصَافِّهم ، وفي يومٍ شديدِ الريح ، إذا رجل أمامي ، رأس فرسي عند عجز فرسه ، وهو يخاطب نفسه ، فيقول : أي نفسُ ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ؟ فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، وأطعتُكِ فرجعتُ ؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلك وعيالك . فأطعتُكِ فرجعتُ ؟ والله لأعرضنَّك اليوم على الله عزَّ وجل ، أخذكِ أو تركَكِ . فقلتُ : لأرمقنَّه اليوم ، فرمقتُه ، فحمل الناسُ على عدوّهم ، فكان في أوائلهم ، ثم إنَّ العدو حَمَل على الناس ، فانكشفوا ، وكان في حُمَاتهم ، ثم حملوا على عدوهم ، فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدو ، وانكشف الناس ، فكان في حُمَاتهم . قال : فوالله ، ما زال ذلك دأبه حتى رأيتُه صريعًا ،

---

(١) يعني : ثغرة .

(٢) يعني : تحضر ما بقي من جسده .

(٣) وهو أن يطعم الله لحمه للسباع والطير .

(٤) الزهد لأحمد ٢٥٦ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٩١ ، ومحاسبة النفس صـ ٤٦ .

فعددتُ به وبدابّتِهِ ستين ، أو أكثر من ستين طعنةً »[١] .

ابنُ رَوَاحَة وشدَّةُ محاسبته لنفسه :

لما قُتِلَ جعفر بن أبي طالب ، دعا الناسُ : يا عبد الله بن رواحة ، يا عبد الله بن رواحة . وهو في جانب العسكر ، ومعه ضلْع جملٍ منهشة[٢] ، ولم يكن ذاق طعامًا قبل ذلك بثلاث ، فرمىٰ بالضِّلع ، ثم قال : وأنت مع الدنيا ؟! ثم تقدّم فقاتل ، فأصيبت أصبعه ، فارتجز ، فجعل يقول :

هَلْ أنت إلَّا أصبعٌ دميتِ ... وفي سبيلِ اللهِ ما لقِيتِ
يا نفسُ إلَّا تُقْتلي تموتي ... هذا حياضُ الموتِ قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد لقيتِ ... إنْ تفعلي فِعْلها هديتِ
وإن تأخرتي فقدْ شقيتي

ثم قال : يا نفسي ، إلى أي شيءٍ تتشوقين ؟ إلى فلانة ، فهي طالق ثلاثًا ، وإلى فلان وفلان - غلمان له - وإلى معجف - حائط له - فهو لله ولرسوله .

يا نفسُ مالك تكرهينَ الجنَّهْ ... أُقْسِمُ باللَّـه لَتنزِلنَّهْ
طائعةً أو لَتُكْرهِنَّهْ ... فطالَ ما قدْ كُنْتِ مطمئنَّهْ
هَلْ أنتِ إلَّا نطفةٌ في شَنَّهْ ... قد أجلبَ النَّاسُ وشدُّوا الرنَّهْ[٣]

عابدةٌ لا ترىٰ قدمَيْها أهلًا للطَّوافِ حوْلَ الكعبة :

قال وهيب بن الورد : « بينما امرأةٌ في الطواف ذاتَ يوم وهي تقول :

---

(١) محاسبة النفس صـ ٤٥ .
(٢) يعني : جمل قليل اللحم ، والضلع من الحيوان : هي عظام الجنبَين .
(٣) محاسبة النفس صـ ٤٣ ، والحلية ١ / ١٢٠ - ١٢١ .

يا رب ، ذهبتِ اللذات وبقيت التبِعات . يا رب ، سبحانك وعزَّتك إنَّك لأرحمُ الراحمين . يا ربّ ، ما لك عقوبة إلا النار ! فقالت صاحبة لها كانت معها : يا أُخيَّة ، دخلتِ بيتَ ربِّكِ اليوم . قالت : والله ما أرىٰ هاتَين القدمَين - وأشارت إلى قدميها - أهلًا للطواف حول بيت ربي ، فكيف أراهما أهلًا أطأُ بهما بيتَ ربي ، وقد علمتُ حيث مشيَتَا ، وإلى أين مشيتا »[1].

عطـاء السـليمي :

عن إبراهيم بن أدهم قال : « كان عطاء السليمي إذا استيقظ قال : ويحك يا عطاء ، ويحك يا عطاء ، وأبيك يا عطاء ، وأمك يا عطاء . حتّى يصبح »[2].

ضَيْغَم بن مالك :

« احذر نفسَك على نفسِك » :

قال أبو أيوب مولى ضيغم بن مالك : « قال لي أبو مالك يومًا : يا أبا أيوب ، احذر نفسَك على نفسِك ؛ فإني رأيتُ هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي ، وايمُ الله ، لئنْ لم تأتِ الآخرة المؤمن بالسرور ، لقد اجتمع عليه الأمران ؛ همُّ الدنيا ، وشقاءُ الآخرة . قال : قلتُ : بأبي أنت وأمِّي ، وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور ، وهو ينصب لله في دار الدنيا ويدأب ؟! قال : يا أبا أيوب ، فكيف بالقبول ؟ وكيف بالسلامة ؟ قال : ثم قال : كم من رجل يرىٰ أنه قد أصلح شأنه ، وقد أصلح قُربانه ، قد أصلح همته ، قد أصلح عملَهُ ؛ يُجمع ذلك يوم القيامة ثم يُضرب به وجهُه »[3].

---

(١) الحلية ٨ / ١٥٠ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٠ .

(٢) محاسبة النفس صـ ٦٨ .

(٣) صفة الصفوة (٣ / ٣٦٠) ، ومحاسبة النفس صـ ٦٨ - ٦٩ .

وهْـب بن منبّـه :

عن وهب بن منبّه قال : الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس بينهما حرون[١] ، فإذا قاد القائد ولم يسُقِ السائق ، لم يُغنِ ذلك شيئًا . وإذا ساق السائق ولم يقدِ القائد ، لم يغنِ ذلك شيئًا . فإذا قاد القائد وساق السائق ، اتبعته النفس طوعًا وكرهًا وطابَ العمل[٢] .

قال عبد الرحمٰن بن زامرد الأزرق العدني - وكان عابدًا - :

ويلي وويحي مِن تَتابُعِ جُرْمي	لو قد دعاني للحسابِ حسيبي
والويلُ لي ويلٌ أليمٌ دائمٌ	إنْ كنتُ في الدنيا أخذتُ نصيبي
واستيقِظي يا نفسُ ويحكِ واحذري	حذرًا يُهيِّجُ عَبْرَتي ونحيبي[٣]

وقال الفُضَيْل بنُ عِياض في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ... ﴾ الآية [النساء : ٢٩] : لا تغفلوا عن أنفسكم ، ثم قال : مَن غفل عن نفسه فقد قتلها .

عمرُ بنُ عبد العزيز :

عن عطاء قال : دخلتُ على فاطمة بنت عبد الملك ، بعد وفاة عمر ابن عبد العزيز ، فقلت لها : يا بنت عبد الملك ، أخبريني عن أمير المؤمنين . قالت : أفعل ، ولو كان حيًّا ما فعلت ، إنَّ عمر رحمه الله كان قد فرَّغ نفسه وبدنه للناس ؛ كان يقعد لهم يومه ، فإن أمسىٰ وعليه بقيّة من حوائج يومه وصله بليله ، إلى أنْ أمسىٰ مساء وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان يُسرج له من ماله ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم .....

---

(١) أي : واقفةٌ بينهما .

(٢) حلية الأولياء ٤ / ٣٠ ، وصفة الصفوة ٢ / ٢٩٥ .

(٣) محاسبة النفس صـ ٧٢ - ٧٣ .

أقعى[(١)] واضعًا رأسه على يده ، تسايل دموعُه على خدّه ، يشهق الشهقة ، فأقول : قد خرجتْ نفسه ، وانصدعتْ كبدُه . فلم يزل كذلك ليلتَه ، حتى برق له الصبح ، ثم أصبح صائمًا . قالت : فدنوتُ منه فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لشيءٍ ما كان قبل الليلة ما كان منك ؟ قال : أجل ، فدعيني وشأني وعليكِ بشأنك . قالت : فقلت له :إني أرجو أن أتّعِظ . قال : إذًا أخبرُكِ ؛ إني نظرتُ إليّ ، فوجدتُني قد وُلّيتُ أمر هذه الأمة ؛ صغيرها وكبيرها وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرتُ الغريب الضايع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمتُ أن الله مسائلي عنهم ، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم ، فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر ، ولا يقوم لي مع رسول الله ﷺ حجّة ، فخفتُ على نفسي خوفًا دمعتْ له عيني ، ووجِلَ له قلبي ، فأنا كلما ازددتُ لها ذكرًا ازددتُ لهذا وَجَلًا ، وقد أخبرتكِ فاتعظِي الآن أو دعي[(٢)].

عامرُ بنُ عبدِ قيْسٍ :

« قومي يا مأوى كلِّ سُوءٍ » :

كان عامر بن عبد قيسٍ إذا صلّى العصر جلس ، وقد انتفخت ساقاه من طول القيام ، فيقول : يا نفسُ ، بهذا أُمرتِ ، ولهذا خُلِقتِ ، يوشك أن تذهب الغيابق[(٣)].

وكان يقول لنفسه : قومي يا مأوى كلّ سوء ، فوعزّة ربي لأزحفنَّ بكِ زَحْفَ البعير ، وإن استطعتُ أن لا يمسَّ الأرض من ....

(١) تساند إلى ما وراءه .

(٢) محاسبة النفس صـ ٧٤ - ٧٥ .

(٣) في صفة الصفوة : يوشك أن يذهب العناء .

زهمك[١] ، لأفعلنَّ . ثم يتلوّى كما يتلوى الحبُّ على المقلىٰ ، ثم يقوم ، فينادي : اللهمَّ إن النار قد منعتني من النوم ، فاغفر لي[٢] .

وتعبّد رجل ببيت شعرٍ سمِعَه :

لِنفسي أبكي لستُ أبكي لغيرِهَا   لنفسي في نفسي عنِ الناسِ شاغلُ

مسروق بن عبد الرحمٰن :

قيل لمسروق : لو أنك قصّرت عن بعض ما تصنع . أي : من العبادة ، فقال : « والله لو أتاني آتٍ من ربي ، فأخبرني أن الله لا يعْذبني ، لاجتهدتُ في العبادة . قيلَ : وكيف ذاك ؟ قال : حتى تعذرني نفسي ، إنْ دخلتُ جهنم لا ألومها ، أمَا بلغكَ في قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ **ولا أُقسمُ بالنَّفْسِ اللَّوّامةِ** ﴾ [القيامة : ٢] ، إنما لاموا أنفسهم ، حتى صاروا إلى جهنم واعتنقتْهم الزبانية ، وحِيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأماني ، ورُفعت عنهم الرحمة ، وأقبل كلُّ امرئ منهم يلوم نفسه »[٣] .

يزيدُ الرقّاشي :

قال يزيد الرقاشي : « ابنَ آدم ، إنك رقيقٌ على الناس ، غليظٌ بعضُك على بعض لو نُعي إليك بعضُ أهلك بكيتَ ، وأنت كلَّ يومٍ تُنعَىٰ إليك نفسُك لا تبكيها » .

ولله دَرُّ القائل :

فيبكي على مَيْتٍ ويغفلُ نفسَهُ   كأنَّ بكفَّيْه أمانًا مِن الرَّدَىٰ

---

(١) الزّهم : يطلق على الشحم من الجسم .

(٢) الحلية ٢ / ٨٩ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٠٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٧٧ .

(٣) صفة الصفوة ٣ / ٢٥ ومحاسبة النفس صـ ٨٠ - ٨١ .

وما الميّتُ المقبورُ في صَدْرِ يومِهِ أحقُّ بأنْ يَبكِيهِ مِن مَيّتٍ غدَا

قال أبو الحجاج المهدي : مَن جعل شهوته تحتَ قدمَيْه ، فَرَق الشيطانُ من ظِلِّهِ .

عابدٌ يحتسب غفلَتَه في نفسه وتقصيره في حظِّه :

قال كلاب بن جري رأيتُ شابًّا ببيت المقدس ، قد عَمِشَ من طول البكاء ، فقلت له : يا فتى ، كم تكون العين سليمة على هذا البكاء ؟ قال : فبكى ، ثم قال : كم شاءَ ربي فلتكن ، وإذا شاء سيدي فلْتذهبْ ، فليستْ بأكرمَ عليّ من بدني ، إنما أبكي رجاء السرور والفرح في الآخرة ، وإن تكن الأُخرى ، فهو والله شقاء الدهر ، وحزن الأبد ، والأمر الذي كنتُ أخافه وأحذره على نفسي ، وإني أحتسب على الله غفلتي في نفسي ، وتقصيري في حظّي . ثم غُشي عليه .

إني أرقتُ وذكرُ الموتِ أرّقني فقلتُ للدمعِ أَسعدْني فأسعدَني

إنْ لم أبكِ لنفسي مشعرًا حزنًا قبلَ المماتِ ولمْ أرقَّ لها فَمَنِ

يا مَنْ يموتُ ولم تحزِنْهُ ميتتُهُ ومَنْ يموتُ فمَا أولاهُ بالحَزَنِ

إني لأرْقعُ أثوابي ويخلِقُها جذبُ الزمانِ لها بالوَهْنِ والعَفَنِ

لِمَنْ أثمِّرُ أموالي وأجمعُهَا لمن أروحُ لِمَنْ أَغدو لِمَنْ لِمَنِ

لمنْ سيوقِعُ بي لَحْدي ويتركُني تحتَ الثرى تَرِبَ الخَدَّيْنِ والذَّقْنِ

وقال سوّار أبو عبيدة : قالتْ لي امرأة عطاء السليمي : عاتِبْ عطاء في كثرة البكاء . فعاتبتُه ، فقال لي : يا سوار ، كيف تعاتبني في شيء ليس هو إليَّ ، إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله عز وجل وعقابه ، تمثّلتْ لي نفسي بهم ، فكيف لنفسٍ تغلّ يدَها إلى عنقها ، وتسحب في النار ؛ أن لا تصيح وتبكي ؟! وكيف لنفسٍ تُعذَّب أن لا تبكي ؟! ويحك

يا سوار ! ما أقلّ عناء البكاء عن أهله ، إن لم يرحمهم الله عز وجل .

وقال أبو سليمان الداراني : وصفتُ لأختي « عبدة » قنطرةً من قناطر جهنم ، فأقامت ليلة ويومًا في صيحةٍ واحدةٍ ، ما تسكت ، ثم انقطع عنها بعدُ ، فكلما ذكرتُ لها صاحتْ صيحة واحدة ، ثم سكتت ، قلت : مِن أيّ شيءٍ كان صياحها ؟ قال : مثّلت نفسها على القنطرة وهي تكفأ بها .

وكتب أبو الأبيض العابد إلى بعض إخوانه : أمّا بعد ، فإنك لم تُكلّف من الدنيا إلّا نَفْسًا واحدة ، فإن أنت أصلحتَهَا ، لم يضرّك فساد من فسد بصلاحها ، وإن أنت أفسدتها لم ينفعْك صلاح مَن صلح بفسادها ، واعلم أنك لا تسْلَم من الدنيا حتى لا تبالي من أكْلها ، من أحمَر أو أسود .

أخي ، إنَّ النفوس رهائن يُكسبونها ، فاعملْ ؛ فإن **فكاكَهنَّ** الدَّأبُ.

زياد بن أبي زيادٍ يُخَاصِمُ نَفْسَه :

قال محمد بن المنكدر : « إنِّي خلَّفتُ زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش ، وهو يخاصم نفسه في المسجد ، يقول : اجلسي ، أين تُريدين ؟ أين تذْهبين ؟! أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟! انظري إلى ما فيه ، تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان ؟ قال : وكان يقول لنفسه : وما لك من الطعام يا نفس إلا هذا الخبز والزيت ، وما لك من الثياب إلّا هذان الثوبان ، وما لك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبّين أن تموتي ؟ فقالت : أنا أصبر على هذا العيش »[1].

توبةُ بنُ الصّمّة يحاسب نفسه ، فيُغْشَى عليه ويموت :

« كان توبة بن الصّمّة بالرقة ، وكان محاسبًا لنفسه ، فحسب فإذا

(١) محاسبة النفس ٩٣ - ٩٤ .

هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتىٰ ، ألقىٰ الملك بواحِدٍ وعشرين ألف ذنب ، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟! ثم خرَّ مغشيًّا عليه ، فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلًا يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلىٰ »[١].

لله دَرُّه !! ما أعلىٰ همته !!

أُثَامِنُ بالنفسِ النفيسة ربَّها ... وليس لها في الخَلْقِ كلِّهم ثمنْ
بها تُمْلَكُ الدنيا فإنْ أنا بِعْتُها ... بشيءٍ مِنَ الدنيا فذلكمُ الغبنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيا أصبتُها ... لقدْ ذهبتْ نفسي وذهب الثمنْ

قال الحسن رحمه الله : « أيسرُ الناس حسابًا يوم القيامة ، الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم ؛ فإن كان الذي همّوا به لهم مَضَوْا ، وإن كان عليهم أَمسكوا . قال : وإنما ثقُلَ الأمرُ يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا ؛ أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عزّ وجلّ قد أحصىٰ عليهم مثاقيلَ الذّرّ ، وقرأ ﴿ **مَا لِهَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** ﴾ »[٢].

أخي ، كيف لا يُحاسِبُ عالي الهمّة العاقل نفسَه ، فيما يتعلّق به خطَرُ الشقاوة والسعادة أبدَ الآباد .

وينبغي أنْ يتقي غبينةَ النَّفْسِ ومكرَها ؛ فإنها خدّاعةٌ مُلبّسةٌ مكّارة ، فليطالبها أولًا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلّم به طول نهاره ، وليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكْله وشربه ونومه ، حتى عن

---

(١) محاسبة النفس صـ ٦٧ .

(٢) محاسبة النفس صـ ٩٤ .

سكوته أنه لِمَ سكت ؟ وعن سكونه لم سكَن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصحّ عنده قدر ، أدىٰ الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبًا له ، فيظهر له الباقي على نفسه ، فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه ، كما يكتب الباقي الذي علىٰ شريكه على قلبه ، وفي جريدة حسابه .

ثم النفْسُ غريمٌ يمكن أن يستوفى منه الديون ؛ أمَّا بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها بردّ عيْنه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلَّا بعد تحقيق الحساب ؛ وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ، ثم ينبغي أن يحاسب النفْس على جميع العمر ؛ يومًا يومًا ، وساعةً ساعة،في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نُقِلَ عن توبة بن الصمة ، فهكذا ينبغي أنْ يُحَاسِبَ نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمىٰ العبدُ بكلِّ معصية حجرًا في داره ، لامتلأتْ دارُه في مدَّة يسيرة قريبةٍ مِن عمره ، ولكنَّه يتساهل في حفْظ المعاصي ، والملَكَان يحفظان عليه ذلك ، ﴿ **أحْصَاهُ اللهُ ونَسُوه** ... ﴾ الآية [المجادلة : ٦] .

إزراؤهم علىٰ أنفسهم :

إذا ما اشتدَّ الصالحون في محاسبة أنفسهم ؛ مقتوا أنفسَهم ، ونظروا إليها بعين النقص .

قال مطرّف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهمّ لا تردّ الجميع من أجلي .

وقال بكر بن عبد الله المزني بعرفة : ما أحلىٰ هذا الجمع ، لولا أني فيهم .

وكان بكر رحمه الله إذا رأىٰ شيخًا قال : هذا خير مني ، هذا عبد الله قبلي . وإذا رأىٰ شابًّا قال : هذا خير مني ، ارتكبتُ مِن الذنوب أكثر مما ارتكب .

وقال مالك بن دينار : إذا ذُكر الصالحون ، فأُفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال أيوب السختياني : إذا ذكر الصالحون ، كنتُ عنهم بمعزِل .

وقال سفيانُ الثوري : جلست ذات يوم أحدّث ومعنا سعيدُ بن السائب الطائفي ، فجعل سعيد يبكي حتى رحمتُه ؛ فقلت : يا سعيد ، ما يُبكيك وأنت تسمعني أذْكُر أهلَ الخيرِ وفعالهم ؟ قال : يا سفيان ، وما يمنعني من البكاء ، وإذا ذكر مناقبُ أهل الخير ، كنتُ منهم بمعزِلٍ . قال سفيان : حُقَّ له أن يبكي .

وقال يونس بن عبيد : إني لأعدّ مائة خصلة من خصال الخير ، ما أعلم أن في نفسي واحدة منها .

وقال صلةُ بنُ أشيم : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ، أوَ مثلي يجترئ أنْ يسألك الجنَّة ؟!.

وقال محمد بن واسع : لو كان للذنوب ريحٌ ، ما قدر أحد أن يجلسَ إليَّ ، **أو لو كانت للذنوب رائحة ، ما استطاع أحد أن يجالسني من** نَتن رائحتي . ورأى رحمه الله ابنًا له وهو يخطر بيده ، فقال : ويحك ! تعالَ ، أتدري مَن أنت ؟ أُمُّك اشتريتُها بمائتي درهم ، وأبوك ! فلا أكثر الله في المسلمين ضرْبَه . أو قال نحوه .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بطيئًا بطينًا . متلوِّثًا مِنَ الخطايا ، أتمنَّى على الله الأماني[1] .

ولقي مالك بن دينار ثابتًا البناني ، فقال له ثابت : يا أبا يحيى ، كيف بك ؟ قال : كيف بمن هو ظاهرُ العيوب كثيرُ الذنوب ، مستورٌ على

---

(١) الحلية ٥ / ٢٨٧ .

غير استحقاق ، فكيف بك يا أبا محمد ؟ قال : فكتف ثابت يده ، ومدَّ عنقه ، وخفض رأسه ، وقال : هذا عذرُ الخطَّائين الأشراء[١]. وأقبلا يبكيان حتى سقطا[٢].

المرابطة الرابعة : معاقبةُ النفسِ علىٰ تقصيرها :

مهما حاسَب نفسه ، فلم تسلم عن مُقَارفة معصية ، وارتكاب تقصير في حقّ الله تعالىٰ ، فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه إنْ أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأَنِسَت بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سببَ هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوةِ نَفْسٍ ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير مَحْرم ينبغي أن يعاقب العين بمنْع النظر ، وكذلك يعاقب كلَّ طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته ، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة .

حَسَّان بن أبي سنان :

عن عبد الجبار بن النضر السلمي قال : مرَّ حسان بن أبي سنان بغرفة فقال : متىٰ بُنيتْ هذه ؟ ثم أقبل على نفسه ، فقال : تسألين عمّا لا يَعنيك ؟! لأعاقبنَّك بصوم سنةٍ . فصامها[٣].

رياح القَيْسي :

« قال مالك بن ضَيْغم : جاء رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ،

---

(١) الأشراء جمع شرير كأشرار .
(٢) محاسبة النفوس صـ ٥٤ – ٥٥ .
(٣) حلية الأولياء ٣ / ١١٥ ، ومحاسبة النفس صـ ٤٢ ، وصفة الصفوة ٣ / ٣٣٩ ، والإحياء ٥ / ٣٩٣ .

فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة؟! أهذا وقت نوم؟! ثم ولّى منصرفًا، فأتبعناه رسولًا ، فقلنا : قل له : ألا نوقظه لك ؟ قال : فأبطأ علينا الرسول ، ثم جاء **وقد غربتِ** الشمس ، فقلنا : أبطأتَ جدًّا ، فهل قلت له ؟ قال : هو أشغل من أن يفهم عني شيئًا ؛ أدركتُه وهو يدخل المقابر ، وهو يعاتب نفسه ، وهو يقول : أقلتِ : أنومٌ هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليكِ ؟ ينام الرجل متى يشاء . **وقلتِ : هذا وقت نوم ؟ وما يُدريكِ أنَّ هذا ليس** وقت نوم ؟ تسألين عما لا يعنيك ، وتَكلَّمين بما لا يَعنيك ؟! أمَا إن لله عليَّ عهدًا لا أنقضه أبدًا ؛ لا أُوسدُكِ الأرض لنوم حَوْلًا ، إلا لمرضٍ جاء بكِ ، أو لذهاب عقل زائلٍ ، سوءةً لك ، **سوءةً لك ، أما تستحين ، كم** توبّخين ؟! وعن غيّك لا تنتهين ! قال : وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني ، فلما رأيتُ ذلك ، انصرفتُ وتركتُه »[(١)].

وعن **محمد بن المنكدر** ، عن أبيه أنّ تميمًا الداريّ نام ليلة ، لم يقمْ يتهجد فيها حتى أصبح ، فقام سنة لم ينم فيها ، عقوبةً للذي صنع[(٢)].

عَابِدٌ يحلفُ أنْ لا ينامَ علىٰ فراشٍ أبدًا :

قالَ طلق بن معاوية : قدِم رجل منّا - يُقال له : هند بن عوف - من سفر ، فمهّدتْ له امرأتُه فراشًا ، وكانت له ساعة من الليل يقومُها ، فنام عنها حتى أصبح ، فحلف أن لا ينام علىٰ فراش أبدًا .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفسٌ أبغضُ إلَّي منها ، فكيف أعطيها شهواتها ؟!

---

(١) الحلية ٦ / ١٩٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٧ - ٥٨ ، وصفة الصفوة ٣ / ٣٦٨ .

(٢) صفة الصفوة ١ / ٧٣٩ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٨ .

داود الطائي : سَجَن نفسَه قبلَ أنْ يُسجن :

« دخل ابن السماك على داود الطائي حين مات ، وهو في بيتٍ على التراب ، فقال داود : سجنتَ نفسك قبل أن تُسجن ، وعذّبتَ نفسك قبل أن تُعذَّب ، فاليومَ ترىٰ ثواب مَن كنتَ له تعمل »[١].

هذا الطائي الصالح الذي قال : « إنما نتبلّغ بستره بين خلقه ، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ، ما ذلَّ لنا لسانٌ أن نُذْكَر بخيرٍ أبدًا » .

وقال : تركْنا الذنوب ، وإنا لنستحيي من كثير من مجالسة الناس .

« وقال : ما نعوّل إلَّا على حُسن الظنّ بالله تعالىٰ ، فأما التفريط فهو المستولي على الأبدان » .

وقال : « اليأس سبيل أعمالنا هذه ، ولكنّ القلوب تحنُّ إلى الرجاء » .

هذا حال الصادق الذي لو كان في الأمم الغابرة لقصّ الله علينا من أنبائه وخَبَره ، فكيف بالكذابين من أمثالنا ؟!

مجمــع :

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا[٢].

فكذا كانت عقوبة أولي الحزْم لأنفسهم ، والعجب أنك تعاقب عبدك وأَمَتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلُق وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزتَ عنهم ، لخرج أمرُهم عن الاختيار وبغوا عليك ،

(١) محاسبة النفس صـ ٦٠ ، والإحياء ٤ / ٤٣١ .
(٢) الإحياء ٤ / ٤٣٢ .

ثم تُهمل نفسك ، وهي أعظم عدوٍّ لك وأشدَّ طغيانًا عليك ، وضررُك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإنّ غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلتَ لَعلمتَ أن العيش عيش الآخرة ، وأنّ فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغّص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقَبَة أولى من غيرها .

فإذا حاسَب المرءُ نفسه فرآها قد فارقتْ معصية ، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو وِرْد من الأوراد ، فينبغي أن يؤدِّبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويُلزمها فنونًا من الوظائف ، جبرًا لِمَا فات منه وتدارُكًا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عُمّال الله تعالى ، فقد عاقَب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة . بأن تصدّق بأرضٍ كانت له ، قيمتُها مائتا ألف درهم .

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة جماعة أحيا تلك الليلة . وأخَّر ليلةً صلاةَ المغربِ حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتَين .

وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة .

عن فضالة بن عُبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهدُ مَن جاهد نفسه في الله »[1].

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلمُ مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر مَن هجَر ما نهى الله عنه »[2].

---

(١) صحيح ؛ رواه الترمذي ، وابن حبان ، وأحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٧٩ .

(٢) رواه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، والدارمي ، والطيالسي .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلُ الأعمال ما أُكرِهتْ عليه النفوس .

إنَّ فتنةَ النَّفس والشهوة ، وجاذبية الأرض والدَّعَة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوّقات والمُثَبِّطات في أعماق النفس - هي الفتنة الكبرىٰ .

والنفس تَصْهرها المجاهدة ، فتنفي عنها الخَبَث ، وتستجيش كامِنَ قواها المذخورة فتستيقظ . ويكفي قول الله عز وجل : ﴿ **والذينَ جاهدوا فينا لَنَهْدِينَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قال أبو يزيد البسطامي : « إن في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون معه إلى أن تطلبوا المعاصي .

وقال : عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئًا أشدّ عليَّ من العلم ومتابعته .

وقال : عالجتُ كلَّ شيءٍ ، فما عالجتُ أصعب من معالجة نفسي ، ما شَيءٌ أهون عليَّ منها .

وقال : دعوتُ نفسي إلى الله ، فأبتْ عليّ **واستصعبت** ، فتركتُها ومضيتُ إلى الله »[١] .

المرابطة الخامسة : مجاهدة النفس :

ومجاهدة النفس قد تشقّ ، ولكنها طريقٌ أكيدٌ وفريدٌ لعلوِّ النفس وشرفها ، وقد يطول بك الأمر فاصبرْ ، وسبيلُك في ذلك كَأَنْ تُسمعها ما ورد في الأخبار من فضْل المجتهدين .

---

(١) الحلية ١٠ / ٣٦ .

ومن أنفع أسباب العلاج : أن تطلب صُحبة عبدٍ من عباد الله مجتهِد في العبادة ، فتلاحظَ أقوالَهُ وتقتدي به .

وكان بعضُهم يقول : كنتُ إذا اعترتْني فترة في العبادة ، نظرتُ إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملتُ على ذلك أسبوعًا ، إلَّا أنَّ هذا العلاج قد تُعُذِّب ، إذْ قد فُقِدَ في هذا الزمان مَن يجتهد في العبادة اجتهاد الأوَّلين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضىٰ تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم ، وما أَشدَّ حسرة من لا يقتدي بهم ، فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدّرة ، ثم يأتيه الموت ، ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالىٰ من ذلك .

قيل لفتح الموصليّ : بالله يا فتح ، لِمَ بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنَّك حلّفْتَني بالله ما أخبرتك ؛ بكيتُ الدموع على تخلُّفي عن واجب حقِّ الله تعالىٰ ، وبكيتُ الدمَ على الدموع ؛ لئلَّا يكون ما صحَّت لَي الدموع .

والعينُ لها دَمٌ وَدَمْعٌ سَحٌّ ذا يكتبُ شجوَهُ وهذا يَمْحو

كان الثوري يقول : عند الصباح يحمدُ القوم السُّرىٰ ، وعند الممات يحمدُ القوم التُّقىٰ .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها ، فمهما تمرّدتْ نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ؛ فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عزّ الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب ، وأبعث على الاقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزْتَ عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء . فإن

لم تكن إبلًا فمعزى ، وخيِّر نفسَك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم - وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين - وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترضَ لها أن تنخرط في سلك الحمقَى ، وتقنعَ بالتشبُّه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء . فإن حدَّثَتْكَ نفسُك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يُطاق الاقتداء بهم ، فطالِعْ أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها : يا نفسُ ، لا تستنكفي أن تكوني أقلَّ من امرأة ، فأخْسِسْ برجل يقصر عن امرأة في أمْرِ دينها ودنياها !

فعليك - إنْ كنتَ من المرابطين المراقبين لنفسك - أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ؛ لينبعث نشاطك ويزيد حرصك ، وإيّاك أنْ تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إنْ تطع أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله .

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردتَ مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب : « حلية الأولياء » ؛ فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم ، وبالوقوف عليه ؛ يستبين لك بُعْدُك وبُعْدُ أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدّثتْكَ نفسُكَ بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسَّر الخير في ذلك الزمان ؛ لكثرة الأعوان ، والآن : فإنْ خالفتَ أهلَ زمانِك ، رأَوْكَ مجنونًا وسَخِروا بك ، فوافِقْهم فيما هم فيه وعليه ؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم ، والمصيبة إذا عمَّت طابت . فإياكَ أن تتدلَّى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقلْ لها : أرأيتِ لو هجم سيْل جارف يُغرِقُ أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم ، ولم يأخذوا حِذْرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرتِ أنتِ على أن تفارقيهم ، وتركبي في سفينة تتخلَّصين بها من الغرق ، فهل يختلجُ في نفسِكِ أن المصيبة إذا عمَّت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم في صنيعهم ،

وتأخذين حِذرك مما دَهاكِ ، فإذا كنتِ تتركين موافقتهم ؛ خوفًا من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد ، وأنت متعرِّضَةٌ له في كلّ حال ؟! ومن أن تطيب المصيبةُ إذا عمَّت ، ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم ؛ حيث قالوا : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٢] . فعليك إذا اشتغلتَ بمعاتبة نفسك وحمْلها على الاجتهاد فاستعصتْ ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجِر عن طغيانها .

المرابطة السادسة : توبيخ النفس ومعاتبتها :

اعلمْ أنَّ أعدىٰ عدوِّك : نفسك التي بين جنبيك ، وقد خُلِقت أمَّارةً بالسوء ، ميَّالةً إلى الشرِّ ، فرَّارةً من الخير ، وأُمِرتَ بتزكيتها وتقويمها ، وقَوْدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذَّاتها ، فإن أهملتَها جمحتْ وشردتْ ، ولم تظفرْ بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذْل والملامة ؛ كانت نفسك هي النفس اللّوامة التي أقسم الله بها ، ورجوتَ أن تصير النفسَ المطمئنةَ ، المدعوةَ إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضيةً مرضيةً ، فلا تغفلنَّ ساعةً عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلنَّ بوعظ غيرك ، ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسِك ، فعظْ نفسَك ، فإنِ اتعظت فعظِ الناس ، وإلَّا فاستحي من الله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وذكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤمنينَ** ﴾ [الذاريات : ٥٥] . وسبيلُك أن تُقبل عليها فتقرّر عندها جهْلها وغباوتها ، وأنَّها أبدًا تتعزَّز بفطنتِها وهدايتها ، ويشتدُّ أنَفُها واستنكافها إذا نُسِبَتْ إلى الحمق ، فتقول لها :

« **يا نفسُ ، ما أعظمَ جَهْلَكِ !** » :

تدّعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشدَّ الناس غباوة وحمقًا!

أمَا تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟! فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخَطْب الجسيم ؟! وعساكِ اليوم تُختَطَفين أو غدًا ، فأراكِ ترين الموتَ بعيدًا ، ويراه الله قريبًا ! أمَا تعلمين أنّ كلّ ما هو آتٍ قريب ، وأنَّ البعيد ما ليس بآت ؟! أمَا تعلمين أن الموت يأتي بغتةً من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ؟ وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصِّبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كلّ نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة ، فيكون المرض فجأة ، ثم يفضي إلى الموت ، فما لك لا تستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟! أما تتدبرين قوله تعالىٰ : ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنبياء : ١ - ٣] ؟!

ويحكِ يا نفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ! فما أعظم كفرَك ؟! وإن كان مع علْمك باطلاعه عليك ، فما أشدَّ وقاحتَك ! وأقلَّ حياءك ! ويحكِ يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخٌ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه ، وشديد عقابه ؟ أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟! هيهات هيهات ! جرّبي نفسك ! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمام ، أو قرّبي أصبعك من النار ليتبين قدرُ طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ؟ فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالىٰ في مهمّات دنياك ؟!

فإذا قصدك عدوٌّ لِمَ تستنبطين الحِيل في دفعه ، ولا تَكِلينه إلى كرم الله تعالىٰ ؟! وإذا أرهقتْكِ حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم ، فما لك تنزعين الروْحَ في طلبها ، وتحصيلها من وجوه الحِيَل ، فلا تعوّلين على كرم الله تعالىٰ ، حتى يعثر بك على كَنْز ، أو يسخّر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟! أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفتِ أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ .

ويحك يا نفس ! ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة ! فإنك تدّعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٦] ؟! وقال في أمر الآخرة : ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٩] ، فقد تكفّل لك بأمر الدنيا خاصَّة ، وصرَفك عن السعي فيها فكذّبتهِ بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالُب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ، لو كان الإيمان باللسان فَلِمَ كان المنافقون في الدرْك الأسفل من النار ؟!

ويحك يا نفس ! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلَّصتِ ، وهيهات ! أتحسبين أنك تُتركين سُدًى ! ألم تكوني نطفة من مَنيٍّ يُمنىٰ ، ثم كنتِ علَقة فخلق فسوىٰ ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتىٰ ؟! فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك وأجهلك ! أما تتفكّرين أنه ممَّاذا **خَلَقَكِ** ؛ من نطفة خلقكِ فقدّرك ، ثم السبيل يسركِ ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذّبينه في قوله ؟! ثم إذا شاء أنشركِ . فإن لم تكوني مكذّبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهوديًّا أخبرك في ألذّ أطعمَتِكِ بأنه يضرك في مرضك ، لَصبرت عنه وتركتهِ وجاهدتِ نفسكِ فيه ، أفكان

قول الأنبياء المؤيَّدين بالمعجزات ، وقول الله تعالىٰ في كتبه المنزلة أقلّ عندكِ تأثيرًا من قول يهوديٍّ يخبرك عن حدْسٍ وتخمينٍ وظنٍّ ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟! والعجب أنه لو أخبركِ طفل بأن في ثوبك عقربًا ، لرميتِ ثوبَك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافّة الأولياء أقلّ عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ! أم صار حَرُّ جهنم وأغلالها وأنكالها ، وزقومها ومقامعها وصديدها ، وسمومها وأفاعيها وعقاربها ، أحقرَ عندك من عقربٍ لا تُحسِّين بألمِها إلَّا يومًا أو أقلّ منه ! ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالُك لضحِكوا منك وسخروا من عقلك ، فإن كنتِ يا نفس قد عرفتِ جميع ذلك وآمنتِ به ، فما لكِ تُسوّفين العمل ، والموتُ لك بالمرصاد ؟! ولعلّه يختطفك من غير مهلة ، فبماذا أمِنْتِ استعجال الأجل ؟! وهبكِ أنك وُعِدتِ بالإمهال مائة سنة ، أفتظنّين أن من يطعم الدابّة في حضيض العقبة يُفلح ويقدر على قطّع العقبة بها ؟! إن ظننتِ ذلك فما أعظم جهلك !

أرأيتِ لو سافر رجل ليتفقّه في الغربة ، فأقام فيها سنين متعطِّلًا بطّالًا ، يعد نفسَه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنتِ تضحكين من عقله ، وظنّه أن تفقيهَ النفسِ مما يُطْمَع فيه بمدّة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تُنال من غير تفقّه ، اعتمادًا على كرم الله سبحانه وتعالى ! ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصّل إلى الدرجات العلا فلعلّ اليومَ آخرُ عمركِ ، فَلِمَ تشتغلين فيه بذلك ؟! فإنْ أوحىٰ إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادَرة ؟ وما الباعث لك على التسويف ؟ هل له سبب إلا عجْزك عن مخالفة شهواتك ، لِمَا فيها من التعب والمشقة ؟! أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قطّ إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكارة

قطّ خفيفة على النفوس ، وهذا مُحَالٌ وجوده ، أما تتأمّلين مذ كم تَعدين نفسَكِ وتقولين : غدًا غدًا ؟ فقد جاء الغد وصار يومًا ، فكيف وجدتِهِ ؟ أما علمتِ أن الغد الذي جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس ، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبّد العبد بقلْعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخَّرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شابٌّ قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قطُّ في المشيب ، بل من العَناء : رياضةُ الهَرِم ، ومن التعذيب : تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جفَّ وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنتِ أيتُّها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليّة وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدّعين الحكمة ؟ وأيّة حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟!

ولعلَّكِ تقولين : ما يمنعني عن الاستقامة إلَّا حرصي على لذَّة الشهوات ، وقلَّة صبري على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتكِ وأقبحَ اعتذارك ! إنْ كنتِ صادقة في ذلك ، فاطلبي التنعُّم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبدَ الآباد ، ولا مطمَعَ في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنتِ ناظرة لشهوتكِ ، فالنظر لها في مخالفتها، فَرُبَّ أكْلة تمنع أكلات ، وما قولكِ في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ، ليصحَّ ويهنأ بشُرْبِهِ طول عمره ، وأخبره أنه إنْ شرب ذلك مَرِضَ مرضًا مزمنًا ، وامتنع عليه شربُه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حقّ الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ، أم يقضي شهوته في الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد - الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة ، وعذاب

أهـل النار - أقـلُّ من ثلاثة أيام ، بالإضافة إلى جميع العمر ، وإن طالتْ مدّته . وليتَ شِعْرِي ! ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟! ما أراكِ تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خَفِيٍّ ، أو لحمق جَلِيّ .

أما الكفر الخفي : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلّة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحمق الجلي : فاعتمادك على كرم الله تعالىٰ وعفوه ، من غير التفاتٍ إلى مَكْره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمـه في لقمـة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصّلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقّين لقب الحماقة . فالأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني .

ويحكِ يا نفس ! لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ، ولا يغرّنّك بالله الغـرور ، فانظري لنفسـك ؛ فما أمْرُك بمهمٍّ لغيرك ، ولا تضيّعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضىٰ منك نَفَس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمـي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنىٰ قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدّي للآخرة على قدر بقائك فيها .

يا نفس ، أما تستعدّين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جُبّةٍ ولبدٍ وحطبٍ وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيَّتها النفس أن زمهرير جهنم أخفُّ بَرْدًا

وأقصر مدّةً من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟! كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدَّة والبرودة ؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيهات ! كما لا يندفع بردُ الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب ، فلا يندفع حَرّ النار وبردُها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرمُ الله تعالىٰ في أن عرَّفكِ طريق التحصُّن ، ويسّر لك أسبابه ، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ؛ كما أن كرم الله تعالىٰ في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك ، وإنما تشترينه لنفسك ؛ إذْ خَلَقَه سببًا لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضًا هو مستغنٍ عنها ، وإنما هي طريق إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، والله غنيٌّ عن العالمين .

ويحك يا نفس ! انزعي عن جهلك ، وقيسي آخرتك بدنياك ، ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [لقمان : ٢٨] ، و﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، و﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وسنة الله تعالىٰ لا تجدين لها تبديلًا ولا تحويلًا .

ويحكِ يا نفس ! ما أراك إلا ألفتِ الدنيا وأنستِ بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكّدين في نفسك مودّتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنتِ مؤمنة بالموت المفرِّق بينك وبين محابّك ، أفترين أن مَن يدخل دار مِلِك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر - لا محالة - إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء ، أم من الحمقىٰ ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لمِلِك الملوك ، وما لك فيها إلا مجاز ،

وكلّ ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ؟ ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « أتاني جبريل فقال لي : يا محمد ، عِشْ ما شئتَ ، فإنك ميّت ، وأحببْ من شئتَ ، فإنك مفارِقه ... » الحديث .

ويحك يا نفس ! أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذّ الدنيا ويأنس بها ، مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السُّمِّ المهلك وهو لا يدري ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا ، كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ؟ وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤمّلون ما لا يُدركون ؟ يبني كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقرّه قبر محفور تحت الأرض ، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا ! أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقىٰ على حماقتهم ، واحسبي أنك لستِ ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبُّه والاقتداء ، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبّين على الدنيا ، واقتدي من الفريقين بمن هو أعْقل عندك ، إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ، ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك ! عجبًا لك ! كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلّكِ يا نفس أسكَرَكِ حبُّ الجاه وأدهشكِ عن فهمها ، أو ما تتفكّرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أنَّ كل مَنْ على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحدٌ ممن على وجه الأرض ، ممَّن عَبَدَكِ وسجد لكِ ، وسيأتي زمان لا يبقى ذِكْرُكِ ولا ذكْرُ مَنْ ذَكَرَكِ ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ،

فـ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٦٨] . فكيف تبيعين يا نفسُ ما يبقىٰ أبدَ الآباد ، بما لا يبقى أكثر من خمسين سنةً ، إن بقي ؟! هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنتْ لك الرقاب ، وانتظمتْ لك الأسباب ، كيف ويأبىٰ إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلّتك ، بل أمر دارك فضلًا عن محلّتك ؟ فإن كنتِ يا نفس لا تتركين الدنيا رغبةً في الآخرة ، لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفُّعًا عن خسّة شركائها ، وتنزُّهًا عن كثرة عنائها ، وتوقِّيًا من سرعة فنائها ؟! أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدَ فيكِ كثيرُها ؟! وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتْكِ فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأفٍّ لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخِسَّاء ! فما أجهلَكِ وأخسَّ همَّتَك وأسْقَطَ رأيَكِ ؛ إذْ رغبتِ عن أن تكوني في زُمْرة المقرَّبين ، من النبيّين والصِّدّيقين في جِوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صفّ النِّعال من جملة الحمقىٰ الجاهلين أيامًا قلائل !! فيا حسرة عليك إن خسرتِ الدنيا والدين ! فبادري ويحك يا نفس ، فقد أشرفتِ على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمَن ذا يصلّي عنك بعد الموت ، ومَن ذا يصوم عنك بعد الموت ، ومن ذا يترضَّىٰ عنك ربَّك بعد الموت ؟!

ويحك يا نفس ! ما لك إلا أيام معدودة ، هي بضاعتك إن اتَّجرتِ فيها ، وقد ضيَّعْتِ أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيّعتِ منها ، لكنتِ مقصِّرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيَّعتِ البقية وأصررتِ على عادتك ؟! أما تعلمين يا نفس ، أنَّ الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟! أما علمت يا نفس ، أنَّ عسكر الموتىٰ عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلَوْا على أنفسهم

كلهم بالأيمان المغلَّظة ، أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟! أما تعلمين يا نفس ، أنهم يتمنّون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارُك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيَّتهم ، ويوم من عمرك لو بِيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروْه لو قدروا عليه ، وأنت تضيِّعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟!

ويحك يا نفس ، أما تستحيين ؛ تُزيِّنين ظاهرك للخلْق ، وتُبارزين الله في السر بالعظائم ، أفتستحيين من الخلْق ولا تستحيين من الخالق ؟! ويحك ، أهو أهون الناظرين عليك ؟! أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطِّخة بالرذائل ، تَدْعِين إلى الله وأنت عنه فارَّة ، وتُذكِّرين بالله وأنت له ناسية ؟! أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أنْتَنُ من العذرة ، وأن العذرة لا تطهِّر غيرها ؟! فَلِمَ تطمعين في تطهير غيرك ، وأنت غير طَيِّبةٍ في نفسك ؟! ويحك يا نفس ، لو عرفت نفسك حقَّ المعرفة ، لظننتِ أن الناس ما يُصيبهم بلاء إلا بِشُؤْمِك ! ويحك يا نفس ، قد جعلتِ نفسك حمارًا لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك ، وفيه من الآفات ما لو نجوتِ منه رأسًا برأس لكان الربح في يديكِ ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئةٍ واحدة بعد أن عَبَدَهُ مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيِّه وصفيِّه ؟!

ويحك يا نفس ، ما أغْدَرَكِ ! ويحك يا نفس ، ما أوْقَحَكِ ! ويحك يا نفس ، ما أجْهَلَكِ وما أجْرَأكِ على المعاصي !! ويحك ، كم تعقِدين فتنقُضين ! ويحك ، كم تعهدين فتغدرين ! ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك ، كأنك غير مرتحلة عنها ؟! أما تنظرين إلى أهل القبور ، كيف كانوا جمعوا كثيرًا ، وَبَنوْا مَشِيدًا ، وأمَّلُوا بعيدًا ، فأصبح

جمْعهم بورًا ، وبنيانهم قبورًا ، وأملُهم غرورًا ؟! ويحك يا نفس ، أما لكِ بهم عِبْرة ! أما لك إليهم نظرة ! أتظُنِّين أنهم دُعُوا إلى الآخرة ، وأنت من المُخلَّدين ؟! هيهات هيهات ساء ما تتوهَّمين ! ما أنت إلا في هدْم عمركِ منذ سقطتِ من بطن أُمِّك ، فابني على وجه الأرض قصركِ ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التَّراقي ، أن تبدو رُسُل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبُشرى بالعذاب ؟! فهل ينفعكِ حينئذٍ الندم ، أو يُقبل منك الحزن ، أو يُرحم منك البكاء ؟! والعَجَب كلّ العجب منك يا نفس ، أنك مع هذا تدَّعِين البصيرة والفِطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مالٍ يزيد وعمرٌ ينقص ؟! ويحك يا نفس ، تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلةٌ عليك ، وتُقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله ، وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسُّرهم عند الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟!

فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمَرَهُ في الدنيا ونهاهُ ، حتى يسأله عن عمله دقيقهِ وجليلهِ سرِّه وعلانيتِهِ ، فانظري يا نفس بأي بدنٍ تَقِفين بين يدي الله ، وبأي لسانٍ تُجيبين ، وأعِدِّي للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملي بقية عمرك في أيامٍ قصار لأيامٍ طوال ، وفي دار زوالٍ لدار مقامةٍ ، وفي دار حزنٍ ونَصَبٍ لدار نعيمٍ وخلودٍ ، اعملي قبل أن لا تعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروجَ الأحرار ، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فربّ مسرورٍ مغبون ، ورب مغبونٍ لا يشعر ، فويلٌ لمن له الويلُ ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل

ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نَظَرُكِ يا نفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسَعْيُك لها اضطرارًا ، ورفْضُك لها اختيارًا ، وطَلَبُك للآخرة ابتِدارًا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شُكر ما أُتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي ، واعلمي يا نفس أنه ليس للدِّين عِوَض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيَّته الليل والنهار ، فإنه يُسار به وإن لم يَسِر .

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإنّ من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التَّهجُّد والقيام ، فإن لم تزل ، فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم يُزِل ، فبقِلَّة المُخالطة والكلام ، فإن لم تُزِل ، فَبِصِلَةِ الأرحام واللُّطف بالأيتام ، فإن لم تُزِل ، فاعلمي أنّ الله قد طَبَعَ على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطِّني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلًا ، وخلق النار وخلق لها أهلًا ، فكلٌّ مَيَسَّر لما خُلِقَ له ، فإن لم يبقَ فيك مجالٌ للوعظ ، فاقنطي من نفسك - والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك - فلا سبيل لك إلا القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طُرُق الخير عليك ، فإن ذلك اغترارٌ وليس برجاء ، فانظري الآن ، هل يأخُذُكِ حزنٌ على هذه المصيبة التي ابتُلِيتِ بها ، وهل تسمح عينُك بدمعةٍ رحمةً منكِ على نفسكِ ، فإن سمحت - فمُسْتَقَى الدَّمْعِ من بحرِ الرحمة - فقد بقي فيك موضعٌ للرجاء ، فواظبي على النِّياحة والبكاء ، واستعيني بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثة ، ولا تملِّي طُول الشِّكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويُغيثك ، فإن مصيبتك قد عظُمت ، وبليَّتك قد تفاقمتْ ،

وتَمَادِيك قد طال ، وقد انقطعتْ منك الحِيَل ، وراحت عنك العِلَل ، فلا مذهب ولا مَطْلَب ، ولا مُستغاث ولا مَهْرب ، ولا ملجأ ولا منجا ، إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتَّضرُّع ، واخشعي في تضرُّعك على قَدْرِ عِظَم جهلك وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذليل ، ويُغيث الطالب المتلهِّف ، ويجيب دعوة المضطرّ ، وقد أصبحتِ إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقتْ بكِ السُّبُل ، وانسدَّت عليك الطرق ، وانقطعتْ منك الحِيَل ، ولم تنجعْ فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمستغاث به برٌّ رءُوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولي : يا أرحم الراحمين، يا رحمٰن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم يا كريم ، أنا المذنِبُ المُصِرُّ ، أنا الجريء الذي لا أُقلع ، أنا المُتمادِي الذي لا أستحي ، هذا مقام المتضرِّع المسكين والبائس الفقير ، والضعيف الحقير والهالك الغريق ، فعجِّل إغاثتي وفَرَجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذِقْنِي بَردَ عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوّة عظمتك ، يا أرحم الراحمين . اقتداءً بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبِّه : لمَّا أهبطَ الله آدمَ من الجنة إلى الأرض ، مكث لا ترفأ له دمعةٌ ، فاطَّلَع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكّسٌ رأسه ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : يا آدم ، ما هذا الجهد الذي أرىٰ بك ؟ قال : يا ربّ ، عظُمتْ مصيبتي ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأُخرجتُ من ملكوت ربي ، فصرتُ في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة ، وفي دار النَّصَب بعد الراحة ، وفي دار البلاء بعد العافية ، وفي دار الزَّوال بعد القرار ، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : يا آدم ، ألم أصْطَفِكَ لنفسي ، وأحللتُك داري ، وخَصَصْتُكَ بكرامتي ، وحذَّرتُك سخطي ، ألم أخلقك بيدي ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدتُ لك ملائكتي ، فعصيتَ أمري ،

ونسيتَ عهدي ، وتعرَّضتَ لسخطي ، فوعزَّتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالًا كلّهم مِثْلك يعبدونني ويسبِّحونني ، ثم عصوْني ، لأنزلتُهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء ، يقول في بكائه طول ليله : إلٰهي ، أنا الذي كلَّما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الذي كلما هممتُ بترْك خطيئةٍ عرضت لي شهوةٌ أُخرىٰ . واعبيداه ! خطيئةٌ لم تَبْلَ وصاحبها في طَلَب أُخرىٰ ! واعبيداه ! إن كانت النار لك مقيلًا ومأوىٰ ! واعبيداه !! إن كانت المقامع لرأسك تُهَيّأ ! واعبيداه ! قضيت حوائج الطالبين ولعلَّ حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمَّار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدًا يناجي ربه ، وهو يقول : يا ربّ ، وعزَّتك ما أريد بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتُك - إذ عصيتُك - وأنا بمكانك جاهلٌ ، ولا لعقوبتك متعرِّض ، ولا لنظرك مستخفّ ، ولكنْ سوَّلتْ لي نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرَّني سَتْرُكَ المُرخى عليَّ ، فعصيتك بجهلي وخالفتُك بفعْلي ؛ فمِنْ عذابك الآن مَنْ يستنقذني ، أو بحبلِ مَنْ أعتصم إن قطعتَ حبلَكَ عني ؟! واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا ، إذا قيل للمخفّين : جوزوا ، وقيل للمثقلين : حطّوا ، أمع المخفِّين أجُوزُ ، أم مع المثقلين أحطّ ؟ ويلي ، كلما كَبرتْ سِنِّي كثُرت ذنوبي ! ويلي ، كلما طال عمري كثرت معاصيّ ! فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟! أما آن لي أن أستحي من ربي ؟!

معاتبة نفْس ونَفَثات صدر :

هذي معاتبة نفس ... نفثات صدر ، وأشجان قلبٍ يمَّم وجهه شطر الدار الآخرة مستراح العابدين ، يبثُّها في خشوعٍ وصدْقٍ تابعيٌّ جليل ، من القرون الخيريَّة ، من تلامذة الصحابة ، تربَّى وصُنع على أعينهم .. شرب

من سلسبيل القرآن والسنة ، وكحَّل أجفان قلبه بهما . فانظر إليه كيف يستمطر الدمع حين يقول في مناجاته . يقول عون بن عبد الله بن عُتبة :

« ويحي ، بأي شيءٍ لم أعْصِ ربي .. ويحي ، إنما عصيته بنعمته عندي .. ويحي من خطيئةٍ ذهبت شهوتُها وبقيت تبعتُها عندي ، في كتابٍ كتبَهُ كُتَّابٌ لم يغيبوا عني .. واسوأتاه ، لم أستحيهم ولم أُراقب ربي .. ويحي ، نسيت ما لم ينسوا مني .. ويحي ، غفلت ولم يغفلوا عني ، لم أستحيهم ولم أراقب .. واسوأتاه ، ويحي ، حفظوا ما ضيّعتُ مني .. ويحي ، طاوعت نفسي وهي لا تطاوعني .. ويحي ، طاوعتها فيما يضرُّها ويضرّني .. ويحها ، ألا تطاوعني فيما ينفعها وينفعني .. أريد إصلاحها وتريد أن تفسدني .. ويحها ، إني لأُنصفها وما تُنصفني ، أدعوها لأُرشدها وتدعوني لتُغويني .. ويحها ، إنها لعدوٌّ لو أنزلتها تلك المنزلة مني .. ويحها ، تريد اليوم أن تُردِيني ، وغدا تُخاصمني .

ويحي ، كيف أفرّ من الموت وقد وكِّل بي .. ويحي ، كيف أنساه ولا ينساني ؟! ويحي ، إنه يقصُّ أثري ، فإن فررتُ لقيني ، وإن أقمتُ أدركَني .. ويحي ، هل عسىٰ أن يكون قد أظلّني فمسّاني وصبّحني ، أو طَرَقني فَبَغَتَني .. ويحي ، أزعم أن خطيئتي قد أقرحتْ قلبي ، ولا يتجافىٰ جنبي ولا تدمع عيني ولا تسهر لي ، ولا يسهر ليلي .. ويحي ، كيف أنام على مثلها ليلي .. ويحي ، هل ينام على مثلها مثلي .. ويحي ، لقد خشيت ألا يكون هذا الصدق مني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .

ويحي ، كيف لا توهن قوتي ولا تعطش هامتي ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، كيف لا أنشط فيما يطفيها عني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، كيف لا يُذهِبُ ذِكْرُ خطيئتي كسلي ، ولا يبعثني إلى ما يُذهبها عني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، لا تناهىٰ

الأُولى من خطيئتي عن الآخرة ، ولا تذكِّرني الآخرة من خطيئتي بسوء ما ركبتُ من الأُولى ، فويلي ثم ويلي إن لم يتم عفو ربي .. ويحي ، لقد كان لي فيما استوعبتُ من لساني وسمعي وقلبي وبصري اشتغال .. فويل لي إن لم يرحمني ربي .

ويحي إن حُجبتُ يوم القيامة عن ربي ، فلم يزكِّني ، ولم ينظر إليَّ ، ولم يكلِّمني ، فأعوذ بنور وجهه من خطيئتي ، وأعوذ به أن أُعطىٰ كتابي بشمالي أو وراء ظهري ، فيسود به وجهي ، وتَزْرَق به مع العمىٰ عيني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، بأي شيء أستقبل ربي ؟! بلساني أم بيدي أم بسمعي أم بقلبي أم ببصري ، ففي كل هذا له الحُجَّة والطِّلْبَةُ عندي ، فويل لي إن لم يرحمني ربي .. كيف لا يشغلني ذكْر خطيئتي عما لا يعنيني ؟! ويحك يا نفسُ ، ما لكِ تنسين ما لا يُنسى ؟! وقد أُوتيتِ ما لا يُؤتَى ، وكل ذلك عند ربي يُحصىٰ ، في كتابٍ لا يَبِيد ولا يَبْلىٰ .. ويحك ، لا تخافين أن تُجْزَيْ فيمنْ يُجْزَىٰ ، يوم تُجزىٰ كل نفسٍ بما تسعىٰ ، وقد آثرتِ ما يفنىٰ على ما يبقىٰ .

يا نفس ويحك ، ألا تستفيقين مما أنت فيه ، إن سقمتِ تندمين ، وإن صححت تأثمين ، ما لك إن افتقرتِ تحزنين ، وإن استغنيت تُفتنين ، ما لك إن نشطتِ تزهدين ، فَلِمَ إن دُعِيتِ تكسلين ؟! أراك ترغبين قبل أن تنصبي ، فلم لا تنصبين فيما ترغبين .. يا نفس ويحك ، لِمَ تُخالفين ؟! تقولين في الدنيا قَوْلَ الزاهدين ، وتعملين فيها عمل الراغبين .. ويحك ، لِمَ تكرهين الموت ؟! يا نفس ويحك ، أترجين أن تَرْضَيْ ولا تُراضين ، وتُجَانبين وتَعْصين .. ما لك إن سألتِ تُكثرين ، فلم إن أنفقت تُقتِّرين ؟! أتريدين الحياة ، تعظمين في الرهبة حين تسألين ، وتقصرين في الرغبة حين تعملين ، تريدين الآخرة بغير عمل ، وتُؤخِّرين التوبة لطُول الأمل .. لا تكوني

كَمَنْ يقال : هو في القول مُدِلّ ، ويستعصب عليه الفعل .

ويح لنا ما أَغَرَّنا ، ويح لنا ما أغفلنا ، ويح لنا ما أَجْهَلَنا .. ويح لنا لأيّ شيءٍ خُلقنا ، أللجنة أم للنار .. ويح لنا أيّ خطرٍ خَطَرُنا ، ويح لنا من أعمال قد أخطرتْنا .. ويح لنا ممّا يراد بنا ، ويح لنا كأنما يعني غيرنا .. ويح لنا إن خُتم على أفواهنا ، وتكلَّمتْ أيدينا ، وشهدتْ أرْجُلُنا .. ويح لنا حين تفتش سرائرنا ، ويح لنا حين تشهد أجسادنا .. ويح لنا مما قصَّرنا ، لا براءة لنا ولا عُذر عندنا ، ويح لنا ما أطْوَلَ أملنا .. ويح لنا حيث نمضي إلى خالقنا ، ويح لنا ولنا الويل الطويل إن لم يرحمنا ربنا ، فارحمنا يا ربنا .

ويحي ، كيف أغفل ولا يُغفل عني ، أم كيف تَهْنَؤُنِي معيشتي واليوم الثقيل ورائي ؟! أم كيف لا يطول حزني ولا أدري ما يُفعل بي ؟! أم كيف تَهْنَؤُنِي الحياة ولا أدري ما أجلي ، أم كيف تعظُم فيها رغبتي والقليل منها يكفيني ؟! أم كيف آمن ولا يدوم فيها حالي ؟! أم كيف يشتدّ حبي لدارٍ ليست بداري ؟! أم كيف أجمع لها وفي غيرها قراري ؟! أم كيف يشتدّ عليها حرصي ولا ينفعني ما تركت فيها بعدي ؟! أم كيف أوثرها وقد أضرَّتْ بمن آثرها قبلي ؟! أم كيف لا أبادر بعملي قبل أن يغلق باب توبتي .. أم كيف يشتدّ إعجابي بما يزايلني وينقطع عني ؟! أم كيف أغفل عن أمر حسابي وقد أظلَّني واقترب مني ؟! أم كيف أجعل شغلي فيما قد تُكفِّل به لي ؟!

أم كيف أعاود ذنوبي وأنا معروضٌ علي عملي ؟! أم كيف لا أعمل بطاعة ربي وفيها المنجاة مما أحذر على نفسي ؟! أم كيف لا يكثر بكائي ولا أدري ما يُراد بي ؟ أم كيف تقرّ عيني مع ذِكْر ما سلف مني ؟! أم كيف أعرِّض نفسي لما لا يقوىٰ له هوائي ؟! أم كيف لا يشتدّ هَوْلي

مما يشتدّ منه جزعي ؟! أم كيف تطيب نفسي مع ذكْر ما هو أمامي ؟! أم كيف يطول أملي والموت في أثري ؟! أم كيف لا أراقب ربي وقد أحسن طلبي ؟! ويحي ، فهل ضرَّت غفلتي أحدًا سوائي ؟! أم هل يعمل لي غيري إن ضيَّعت حظِّي ؟! أم هل يكون عملي إلا لنفسي ؟ فَلِمَ أدَّخِر عن نفسي ما يكون نفعه لي ؟!

ويحي ، كأنه قد تَصرَّم أجلي ثم أعاد ربي خلْقي كما بدأني ، ثم أوقفني وسألني وسأل عني وهو أعلم بي ، ثم أُشهِدتُ الأمر الذي أذهلني عن أحبابي وأهلي ، وشُغلت بنفسي عن غيري ، وبُدِّلَتِ السمٰوات والأرض ، وكانت تطيعان وكنت أعصي .. وسُيِّرت الجبال وليس لها مثل خطيئتي .. وجُمِع الشمس والقمر وليس عليهما مثل حسابي .. وانكدرت النجوم وليست تُطلب بما عندي .. وحُشرت الوحوش ولم تعمل بمثل عملي .. وشاب الوليد وهو أقل ذنبًا مني .. ويحي ، ما أشدَّ حالي وأعظم خطري ، فاغفر لي » .

ومُعاتَبَة أُخرىٰ أعْطَر من أريج الزهور :

يا نفس ، ما لي أراك مطمئنّة ، والغالب عليك الفرح والسرور ، وشواهد المقت باديةٌ عليك ، ودلائل الغضب بيِّنة فيك في كثيرٍ من أحوالك ؟! قد اطمأنَنْتِ وسكنتِ ، وكثيرًا ما يغلب عليك الفرح والسرور في أكثر الأحوال ، وأنت ترين فيك من الله دلائل الغضب ، وشواهد المقت ، ثم لا تبكين ، ولا لذلك تكترثين .. كأنك لغضب الله تطيقين ، ولعذابه تجهلين .. هيْهات هيْهات .. إنك عن دون الله لتضعفين .. ومِنْ أَقَلِّ أذى الدنيا تجزعين .. فكيف بشدَّة غضب الله وأليم عذابه ؟! ولكن عقوبات الله منعتْك من أن تجزعي .. فكيف يصنع الله بمن لا يجزع من غضبه ، ولا يتوجَّع من أليم عذابه ، ولا يصلح على آدابه ، ولا يُقبل عليه بالإقلاع ، شكرًا

لدوام نعمائه ، ولا ينحاش ولا يهرب إليه لما يرى من سوءِ آثار عقوباته في الدنيا خاصَّة دون معاشه في نفسه وعياله .

ويحك يا نفس ، ألم تري أن مولاك قد أبعدك عمَّا كان يتعاهد به قلبك من هيجان التَّيقُّظ ، وقوَّة التَّنبُّه والدَّوام على ذكْره ، والجَزَع من نسيانه ، وشدّة عذابه ؟! لقد رغَّب الله قلبك في أوَّل أمرك .. وتأديبًا كانت بليَّة الله فيك .. وتقريبًا منه إليك .. وتحنُّنًا منه عليك .. فنبَّهَ قلبَكِ عن الغفلات .. ومنَّ عليك بجُود الحلاوة عند الطاعات .. وشدّة التّلذُّذ بالمناجاة .. فأصبحتِ وأمسيتِ مُباعَدَةً من الله .. مطرودةً عن بابه .. منحَّاةً من قُربه .. قد حلَّ بك منه الخذلان .. تتمادين في الغفلات فلا يوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا يُنبِّهك ، وتكون منك الزَّلَّة بعد الزّلّة ، فلا يدوم لك الحزن ، ولا يطول بك الغَمُّ ، بل قد قَلَبَ التَّنبُّهَ فيك ، فصار لا ينبِّهك ولا يذكِّرك .. ثم يحجبك بالعقوبة عن استعمال التَّذكُّر وطاعة التَّنبُّه .. فصرت في شرِّ حال ، ويليه منزلتان : طُول الغفلة ودوام النسيان لنظر الجليل العظيم ، ثم شهوتك لترْك استعمال التَّذكُّر وطاعـة التَّنبُّه .. فالحال الأُولىٰ : طـول غفلة لِقلَّة المُبالاة بأن يطَّلع وينظر . والحال الثانية : جُرأَةٌ وإقدام عليه ، مع التَّذكير والتَّنبيه ، إلى أن صار ذلك يُباعِد منه ، ويحرم الخلودَ في جواره .

فهل سمع السامعون بأسوأَ منك حالًا ؟! وهل عرف العارفون بأَشَرَّ من منزلتك ؟ ثم مع ذلك الحزن عنك زائل ، والغَمُّ لك مُباين ، والتَّوجُّع لك غيرُ لازِم ، وقد رآك مولاك في أسباب الدنيا بأَضداد ذلك كله ، شُغلك بطَلَبها دائم .. لا تملّين .. تنشطين وتقوين إذا رأَيتِ الزيادات في معاشك .. وتنكسرين إذا رأيت النقصان فيه .. ولا يكون ذلك فيما بينك وبين ربِّك إلَّا في أقلّ الأوقات .. فقد أصبحتِ عند الله مُفتَضَحة .. ومن البعد منه غير مكترثة .. لقد أصبحتِ وأمسيتِ وهو عليك غير مُقبِل ، ولك غيرُ

مُقرِّب ، مُقصَاةٌ منه مُباعدَةٌ عنه ، ولولا تفضُّله عليك بالعفو ، لَسَلَبَكِ نعمةَ الدِّين كلّها ، ولكنّه يُبقي من العقوبة تفضُّلًا وإحسانًا .. مِنْ أجْلِ ذلك ، وجب حُبُّه على المطيعين والعاصين جميعًا .

ويحك ، ما لك في الجهل مفعمة مغموسة .. وفي البلايا متلوِّثة .. ويحك ، هل عقلتِ مَنْ تعصين ؟! بل هل عقلت من تعوقين ؟! ويحك .. تتمادين في الغفلات فلا يُوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا يُنبِّهك .. فكيف لا يغلب ذلك عليك ، وأنت كل يوم في نقصان ، وكلّ يوم لا تفرّين من العصيان ؟! إن تُبت لم تلبثي أن ترجعي عن توبتك ، وعاودت في تخبُّطك ، وإن عزمتِ لم تُقلعي ، وإن فعلت ما عزمت عليه فمن الآفات لم تسلمي ؛ عن حبِّ محمدةٍ أو عُجْب بما عملتِ .. تُعاهدين فتغدُرين ، وتعدين فتُخلفين ، وتحلفين بالله ثم لا تَفِين ، فلو كنت جاهلة كان أخَفَّ للحُجَّة عليك ، وكان أبْعَد لك عن الجُرأة على مولاك .. ولكن عظُمت عليك الحُجّة ، ودامت منك الجرأة ، إذ كنت للآثار طالبة ، وللقرآن حافظة ، وفي الدقائق من الحكمة مُناظِرة ، وبِحُسْن العظات ناطقة ، تدعين إلى الله وأنت منه فارَّة ، وتذكِّرين بالله وأنت له ناسية ، تُعظِّمين الله بالقول وأنت بالفِعْل غير معظِّمة .

ويحك ، أنت اليوم مهملة .. والله لك مُنْظِر .. وعن قليلٍ تنقطع المدّة ، وتزول النَّظِرة .. ولو قد تغشَّاكِ الموت وسياقه ، فلقد حضركِ العدم ، فأَعطيتِ النّيّةَ الصحيحةَ حيث لا يُقبل .. ويحك ، أتدرِين عمَّا ينكشف الغطاءُ ؟! أما تخافين لو بلغت منك النفس التَّراقي ، أن تبدو رسل الله منحدرة من السماء بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبُشرىٰ العذاب ، فهل ينفعك حينئذٍ الندم ، أو يُقبل منك الحزن ، أو يُرحم منك البكاءُ ؟! ويحك ، بادري حلول الأجل بالتوبة .. واغتنمي عيش كل ساعة ..

فإنك في السَّيْر مُجِدَّة .. وفي كل وقت من لقاءِ الله تقربين .

ويحك ، تكلَّفي الحزن واطلبيه ؛ لعلَّك من الحزن الأكبر تنجين .. ويحك ، كدِّري الفِكر فيما سلف منك من الذنوب ، وعوِّدي البكاءَ عينًا بالدموع ، قبل سيلها في نار جهنم .. ويحك ؛ استعيني بأرحم الراحمين .. واشتكي إلى أكرم الأكرمين .. وأديمي الاستغاثة ، ولا تملِّي طُول الشِّكاية ، لعلَّه أن يرحم ضعفك ويُغيثك .. فإن مصيبتك قد عظُمت .. وبليَّتك قد تفاقمت .. وتماديك قد طال .. قد انقطعت منك الحِيَل ، وانزاحتْ إليك العِلَل ، فلا مَهْرب ولا مَطْلب ، ولا استغاثة ولا ملجأ ولا منجا ، إلَّا إلى مولاك .. فاضرعي إليه .. واخشعي في تضرُّعك على قدْرِ عظيمِ جُرمِك ، وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذَّليل ، ويُغيث الطالب المتلهِّف ، ويُجيب دعوة المضطرّ ، فقد - والله - أصبحتِ إليه مضطرَّة ، وإلى رحمته محتاجة ، فأَلِحِّي بالطلب للفَرج ، واشتكي لِعِظَم المصيبة ، فإن المطلوب إليه كريم ، والمسئول إليه جواد ، والمستغاث به رءُوف .

فأديمي الاستغاثة فإنه يُغيثك .. وإن من إغاثته لك أن منَّ عليك بالاستغاثة ، فإن أدَمْتِ ، أتمَّ ما منَّ به عليك ، وأجاب الدعوة ، وعجَّل الإغاثة ، فقد - والله - ضاقت بك السُّبُل ، وانسدَّتِ الطرق ، وانقطع منك الحبل ، ولم تنفع فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ .. فليَرَك مولاك في مقام المضطرّين الحيارىٰ الملهوفين ، لأنه إن آخذَكِ بعظيمِ جُرمِك ، لم يُغثك ، وإن صفحَ بجُوده - أن يُؤاخذك - أسْرَعَ إجابتَكِ .

فادعي دعاء من لا يستأهل أن يُجاب ولا يُغاث ، طامِع من الجواد ألَّا يُناقَش بالسيئات ، ولا يُؤاخَذ بالخطايا ، ويُغيث من يدعو ، وهو عند نفسه لا يستأهل أن يُجاب ، ولكن حَمَلَه على التَّضرُّع ، معرفتُه بكرم المسئول وجُودِ المطلوب ورحمةِ المستغاث .

فاعقلي ما فاتك من طاعة ربك ، وما أفنيتِ من عمرك في غير التَّقرُّب إليه .. فيا أسفاه على طاعته .. ويا حُزناه على رضاه .. ويا خَجَلاه ممَّا اطَّلع عليه .. ويا طُول كمدِك إنِ حَرَمَك جِوارَهُ في الآخرة .. كما حرمك صدْق معاملته في دنياك .. ويا تَقَلْقُلَك في حرِّ جهنم إن لم يعفُ عنك .. ويحك ، اذكري ما يحلّ بأهل عذابه من اشتعال النار في جميع أجسامهم ، ووصولها إلى أحداقهم ، ودخولها في أجوافهم .. ويحك ، كيف ترين وجعَ قلبِ عبدٍ دخلت النار في عينه ، ونفذت إلى جميع بدنه ؟! بل كيف بنارٍ تأكل أمعاءَه وكبدَهُ ؟! بل كيف بلسانٍ من نار يدخل في جوف قلبه ، ثم يلتهب في جميع أعضاءِ جسده ؟!

ويحك ، أتأمنين أن يكون هذا - غدًا - نَعْتَكِ وَصِفَتَكِ ، وهذه حالك ؟! ويحك ، ارحمي ضعف جسمك ، ولا تُخاطري به ، ورِقّي لقلّة صبرك ، ولا تغترّي .. إذا لم ترحمي بَدَنَكِ من النار ، فمن ترحمين ؟! وإذا لم ترِقّي له فعلى من تَرِقّين ؟! والله لو تُبتِ وأَنْبْتِ وأطعت ، لم آمن عليك أن يُرَدّك ولا يُقيلك ، فاستقيليه عسىٰ أَلّا يُرِدَّك ، ولا تنالين ذلك إلّا به ، فافزعي إليه فَزَع الهالك ، وتضرَّعي إليه تضرُّع الغريق ، واستغيثي به استغاثة العَطِب ؛ فإن المستغيث مأذونٌ له في الاستغاثة ، والله الداعي موفّق للدعاء .. فما كان الكريم يَمُنُّ بالاستغاثة ، ويُهيِّج على الطَّلَب ، وهو لا يريد ممن فعل به ذلك أَلّا يُجيبه .. ولكن ليُكثر المتفضّل عليه بالدعاء على مقدار نقمته ، وليُلحّ بالطلب على قدْر مسكنته ، فلتقصيرٍ في ذلك ردّ أكْثَر المستغيثين .

فأَمَّا مَنْ فتحَ الله عليه بابَ الاستغاثة ، ومَنَّ عليه بالتَّضرُّع إليه ؛ فعظَّم مِنَّتَهُ بذلك ؛ وعلم أنه أُعطي ما لم يستأهله ، ثم داومَ وواظبَ على الطَّلَب ، فلن يخيِّب الله دَعوتَهُ ، ولن يُمسك إجابته .. أبىٰ الجوادُ بكرمه وجوده ،

أن يَرُدّ مَنْ أراده فاشتكى إليه .. فداومي ولا تملّي ، فمن كان في مِثْل حالك لا يملّ دوام التَّضرُّع ، لشدَّة مسكنته .. ولعظيم مصيبته .

ويحك ، إن لم تخافي العذاب ، ولم ترحمي جسدك ، أما تشتاقين أن يحلّ بك من الله الرضا ، وينظر إليك بالحظوة ؟!! ويحك ، أما تحِنِّين إلى طِيب جوار الله في جنته ، في روحٍ لا يزول ، ونعيمٍ لا يبيد ، وقرَّة عينٍ لا تنقطع ، فوق الأماني ممَّا تشتهيه الأَنفس ، مع البقاء واليقين بالرضوان ؟!! وأعظم من ذلك تشتاقين إلى أن تزوري مولاك ، وتسمعي كلامه لك بالترحيب ، ويكشف الحجاب فتنظري إلى من لا يشبهه شيءٌ في جلاله ؟

ويحك ، في هذه الدار وَجَبَ ذلك كلُّه للعُمَّال ، وفي هذه حلَّ الحرمانُ كلُّه على الجُهَّالْ ، فعيشُك غنيمة ، وبقيَّة عمرك إقالة ، فافرحي واشكري مولاك أن يكون الموت عاجَلَكِ ، فحال بينكِ وبين الرجوع ، وقطعَ بك عن النُّزوع ، وفاتك طيب جِوار الله الجليل العظيم .

ويحك لا تزهدي في القرب من النار ، ولا تستهيني بطيب الجوار ، ولا تُعرضي عن الرغبة في رضوان الله ، إني لأَقول لك هذا ، ولا أدري أيّ حال عند الله حالُك ؟ بماذا ينظر إليك في ساعتك هذه ؟ بالمحبة والرضوان ؟ أم بالغضب والسخط والحرمان ؟ وأيُّ الدارَيْن دارُك ؟ وأيُّ القرارَيْن قرارك ؟ وأيُّ العيش عيشُك ؟ فَكِلا الدارَيْن قد امتلأ بسكّانها ، ووصل كل واحدة منها أهلها ، فأطلع بقلب فارغ إلى الجنة ، وقد ثوى فيها سُكّانها ، إلى انفساح سعتها ، وبَرْد طيب نسيمها ، وإلى طيب ما يفوح من روائحها ، وإلى حُسْن بناءِ قصورها ، وبهجة حليها وحريرها ، وتلألؤ نورها على أَسِرَّتها وحجالها ، وحسن وجوه أهلها ، ونَضْرة أثر النعيم في وجوههم ، وقربهم من مليكهم ، ويقينهم برضا الله عز وجل

عنهم ، واختلاف الملائكة رُسُلًا من الله إليهم ، وتردُّد الولدان كاللؤلؤ في لذّاتهم ، واضطرار أنهارها على جنادل ياقوتها ، وقد تضمَّنت من أصناف البهجة في عَرَصاتها .

ثم أشرفي بوجهِكِ على دار الهون والخزي ، فانظري ببصر قلبك إلى شدة ضيقها ، وتكاثُف ظلمتها ، وانطباق أبوابها ، مسودّة بالعمد عليهم ، **ووهج النيران فيها ، ثم انظري إلى قبيح صُوَر المعذبين فيها ، وإلى** شِدّة نتَن دارهم ، وتهتُّك أجسامهم ، ونتَن مقطعات ما بهم ، وإلى النيران ملتهبة من فوق رؤوسهم وأسافل أقدامهم ، وإلى حِياض الحميم تفور ، معدّة بشدّة عطشهم ، وتجاوُب أصواتهم بالويل والثبور ، وإلى تضرُّعهم إلى « مالك » والخزنة ، وندائِهم الأقرباء بالاستغاثة ، ثم دعائهم إلى ربّهم فأخسأهم ، فانقطعت أصواتهم ، والتحمت أفواههم ، وحُبِست أنفاسهم ، وبقوا بالغمِّ والكرب لا يتنفّسون إلى حلول غضب الله عليهم ، وانقطاع رجائِهم منه ، وتوهَّمي ما تضمنتْه حواشيها من صنوف الهوان والألوان من العذاب ؛ فإنك إنْ نظرتِ في ساعتك هذه إلى كلّ واحدة منها وعظيم ما فيها ، ثم لم تأمني حرمان جوار الله ، والخلود في دار عذابه - أشفقْتِ ، وإن أشفقتِ حذرتِ ، وإن حذرتِ أيقنتِ بكلّ ما يتوعّد به ، فتبتِ وأنَبْتِ ، ومِن كلّ ما يُكْرَه تطهّرتِ . فانظري وتوهمي إلى عواقب من أطاع واتقىٰ ، وعواقب من عصىٰ الله وأساءَ ، ولا ترضي بأن تخاطري فيما إنْ وقعتِ فيه لم تُقلي ، ولا إلى الدنيا تُرَدِّين .

ويحك إنّ الدنيا دار نجاة الآخرة ، بقدر ما تحملين فيها من المكروه لله تُعَوَّضِين ، وبقدر ما تتركين من ملاذِّها تُجْزَين .

إن الجامعين بذلوا الأحزان في الدنيا ، فورثوها في الآخرة دوامَ السرور ، أطالوا البكاءَ في الدنيا ، فدام في الآخرة فرحُهم ، تَعِبُوا ونصبوا ،

فورثوا راحة الأبد ، رفضوا لله الشهوات ، فرجوا الجواري القاصرات ، وتنادموا بالخمور ، وصاروا إلى منية وغاية من اللذّات ، ويحك ، فلا تدّعي معاملة مولاك في دار العمل ، فتخسري الدنيا والآخرة .

ويحك يا نفس ، ابكي على ما مضى من سوالف الذنوب ؛ فإن المنقطع به يستعين بالبكاءِ إلى من يستغيث به ، رجاءَ أن يُرحم ، فخذي في البكاء والعويل ، والنوْح والضجيج ، لعلّه أن يرحم منك العَبْرة ، فيقيلك العَثْرة ، ويعجل لك النقلة ؛ فإنْ رَحِم اللهُ بكاءَك ، وسمع شكواك ، وعلم منك النوح والعويل - إذْ عرف عظيمَ سيئك - رجوتِ أن يعجّل لك الفرج ، وينقلك إلى مقام من تولَّاه ، ورحم تضرُّعه وشكواه ؛ فخذي في النوح والعويل ، والشكوى والتعديد ، طلبًا لجَبْرِ المصيبة .

أنا العاصي في دنياي ، وأنا المفلس المسلوب ، بل الموقر بالخطايا والذنوب ، بل أنا العليل الدائم على ميل للسقوط ، كأني مقيم على أسباب مهلكتي ، فالويل لي إن كان قد سخِط عليّ ربي ، والخيبة لي إن مقتُ اللهِ حلّ بِي ، والحسرة لي إن كان الله أوجب ألَّا أجاوره في جنته ، والويل والعويل إن كان أغلق الباب عني ، فلا ترفع لي السماء دعوة ، ولا يصعد لي عمل .

فيا طولَ حزني وغمّي ! ويا طول جهدي وكمدي إن كان الله قد قطع ما بيني وبينه ، فلو محى جميع أهل السماوات والأرض لعظيم مصيبتي ، لكانت أعظم من محْي ربهم رحمةً لي .

ويحي وتأويلي ! لعلي من أعداء الله وأنا لا أدري ، ولعلّه أوجب على نفسه أن لا يقيلني دون أن يجعل النار من الدنيا مُنْقلبي ، فما بيني وبين الهوان والذلّ الطويل والحزن إن لم يعفُ عني ؟ إلى أن تنقطع أيام

أجلي ، فيحضر وقت منيتي ، ويكشف لي عن الغطاءِ ، ويأتيني الخبر اليقين .

فيا جهدي وضعفي ، ويا ذلّ استحيائي ، ويا شدّة حسرتي وعظم ندامتي ، لقد خبتُ إذْ ردّ دعائي ولم يرحم شكواي ، فكيف يُغيث مَن غَضِب عليه ؟! وكيف يرحم من سخط عليه ؟! فأَنا الجريء الذي لا يقلع ، وأنا المتمادي الذي لا يستحي .

ويحك يا نفس ، أين تلاوة القرآن ؟ وأين معاني الآثار ، وأين الشكر لمن لا تعرفين منه إلّا الإحسان ؟ رضيتِ بأحوال الجاهلين ، ومنازل الغافلين ، وأعمال الفاسقين ؟! ويحك يا نفس ، أليس قد انقطع عنك كلّ لذة ، وزالت عنك كلّ رفاهية ، وانقضت الساعات والأيام ، وما كان فيها من التخليط والذنوب ، وبقيَتْ عليك الأوزار ؟! هذا ما قد قضىٰ وذهب .. وبقي السؤال !! فهكذا تستقبلي أيامك ، ما يكون منها وما يبقىٰ عليك من التَّبِعات ، فتحوّلي عمَّا ينقضي ويبقىٰ سوء عاقبته ، والله فما ينفعك معه رزق ولا أجل ، ولا يفارقك حسن عاقبتك في دنياك وآخرتك .

ويحك ، فنادي ربَّك بصوت محزون من قلب محتدمٍ مغموم ، واسبلي الدموع واستغيثي استغاثةَ المكروب ، فقولي : يا ربّ ، هذا مقام المتضرّع المسكين ، البائس الفقير ، الهالك الغريق ، فعجِّلْ إغاثتي وفرجي ، وأَرِني آثار رحمتك ، وأَذْقني بَرْد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عظمتك ولذَّة إقبالك عليَّ ، وترويح زوال عقوبتك ، وسرور القلب منك ، وأُنْس الحبِّ لك ، فبدّل أحوالي ، واقلبْ همّتي ، وحوِّلْ لذَّتي ، حتىٰ يصير ذلك في صدق معاملتك ، وحلاوة مناجاتك ، وراحة الثقة بك .

يا نفس ، فادعيه وأنت منه مستحية ، فقد طال قلَّة حيائك منه ،

ويحك ؛ تستحين من الخلق من المؤمنين والكافرين أن يروا فيك ما يعيبونك به ، ولا تستحين ممن يطّلع علىٰ كثرة ما عندك من ذنوبٍ وسوءِ ضميرك ؟!

ويحك ، إذ حملتِ وِعاءً من أوعية الشرّ ، فإنك ترتعدين خوفًا أن يبدو للناس شيء ممَّا فيه من الشر ، فمتىٰ تُصلحي ما بينك وبين الله ؟ هٰيهات ! اذكري الموت كالعبد السوءِ الذي لا يستحيي من مولاه ، ولا يرجع عن مساوئه ، ولا يعرف إحسانه إليه إلَّا عند الحساب والعقاب ، واذكري الموت وما بعد الموت ، ما ظنُّك بمن يكره أن يطّلع الناس منه علىٰ ما يكره الله ، ولا يستحيي أن يطّلع الله منه علىٰ ما يكره ، سوءَة لك .. وعجبًا لك !! حيث تتركي وتضيّعي الفرض ، وتركبي من الأشياء ما كره الله ، ثم تتقرّبي إلى الله بما لم يفرضه عليك ، وتتعاطي النوافل ، وتأمري وتنهي ، وتدعي الناس - بزعمك - إلى الله ، وتأبقي منه ، وتأمري ولا تعملي ، وتنهي ولا تنتهي ، سوءَة لك ! فمِن ذلك ينبغي أن تستحي .

فادعي علىٰ تفقُّد لُطْف مولاك ، لعلك أن تستحي منه ؛ فإن لطفه باطن وظاهر مع إساءَةٍ منك باطنةٍ وظاهرةٍ ، فهو يُديم إحسانه بأضعاف الإحسان ، مع دوامك علىٰ الإساءَة بصنوف من الإساءَة .

ويحك ، أَوَ كافرةٌ أنتِ ؟! أما شاكَّة في الله أنت ؟! ويلك ، والويل لك ، ما أسوأَ حالك ! مهلكة وأنت تعلمين ! مع ذلك في السرور تتقلَّبين ، وبالله لا تبالين ! من خلقه تستحين ومنه لا تستحين !! ويلك ، علىٰ الغضب منه تستقدرين !! أما تستدلّين ؟ فأَنت لا تكترثين ولا تحزنين ، كل ذلك غرّة بالله وجرأة عليه ؟! فقد تحيَّرتُ يا نفس في أمرِكِ !! وتبدّلتُ في التأني لكي ؛ أُعاتبك ولا تغيثيني ، وأعظك ولا تتعظين ولا تنكسرين ، وأعيّرك فلا تستحين ، وأشكوك إلى من علمك فلا تداني أهلًا للجواب ، وأَستغيث منك فلا تغيثيني !! فما أَدري !! كيف حيلتي ؟! ولمن أستغيث ؟! وممن

أستعين ؟! علىٰ ربي ؛ لعلَّه له عنده جاهًا فيطلب لي فيشفعه ويفرج عني ، فما أَجد حيلة إن لم يُجب دعوتي : مولاي ؛ ولا مطلب للفرج إلَّا بتكرار الإغاثة ودوام الشكوىٰ ، لعله يرحم ضعفي ، ويكشف ضرّي ، ويزيل سقمي ، وينعش صرعتي ، وينقذني من غرقي ، فأنا - واللهِ - الكذّاب المستور عند العباد ، وأنا الهالك الفَرِح ، وأنا الغريق المسرور .

ويحك يا نفس ، كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنّين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلَّصتِ ، وهيهات ، أَتحسبين أنك تُتْركين سدًى ؟! ألم تكوني نطفة من منيٍّ يُمْنَىٰ ، ثم علقة فخلق فسوَّى ، أَليس ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ ؟! فإن كان هذا من إظهارك ، فما أَكفرَكِ وأجهلَكِ !! أَمَا تتفكّرين أنه ممّاذا خلقكِ ؟ مِن نطفةٍ خَلَقكِ فقدّرك ، ثم السبيلَ يسَّرك ، ثم أماتكِ فأقبرك ، أَفتكذّبينه في قوله : ﴿ **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَه** ﴾ ؟! فإن لم تكوني مكذّبة ، فما لكِ لا تأخذين حِذْركِ ؟! ولو أن يهوديًّا أخبرك في أَلذّ أطعمتك بأنه يضرُّك في مرضك ، لَصبرتِ عنه وتركتِهِ ، وجاهدتِ نفسك فيه ، أَفكان قول الأَنبياء عندك أقلَّ تأثيرًا من قول يهودي ؟!

أَمَا تعلمين يا نفسُ أَن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أَنيسك ، والفزَع الأَكبر بين يديْك ؟! فاحذري يا نفسُ يومًا آلىٰ الله منه علىٰ نفسه أَن لا يترك عبدًا في الدنيا أَمَره ونهاه حتىٰ يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سرّه وعلانيته .

فانظري يا نفس بأَي بدنٍ تقفين بين يدي الله ، وبأيّ لسان تجيبين ، وأَعِدّي للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملي بقيّة عمرك في أيام قِصار لأَيام طِوال ، وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصَب لدار نعيم وخلود ، اعملي قبل أن تُعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروجَ الأَحرار ، قبل أن تخرجي منها علىٰ الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات

الدنيا ، فرُبّ مسرور مغبون ، ورُبَّ مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، قد حقَّ له في كتاب الله أنه من وقود النار .

فلْيكن نظرُك يا نفس إلى الدنيا اعتبارًا ، وسعيُك لها اضطرارًا ، وفضلك لها اختيارًا ، وطلبك للآخرة ابتدارًا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي .

ويحك عما بداخلك غدًا بين يدي مولاك ، فلا تغربي عنه صَفْحًا ، ولا تشاغلي عن ذكره ، ولا تَدَعي العُدَّة بتهيئة الجواب له بصدق ما كنتِ عليه في الدنيا ، فلأن تجيبي بالصدق أرْفَهُ لقلبك من أن تجيبي بالكذب .

والله ما قامت العقول من الصادقين عند جوابه حتى ذهلتْ ، ثم ردّها إليهم لإقامة الحجّة على المسخوط عليهم أن يدخلهم في عذابه ، وهم له عاذِرون ، ولأنفسهم لائمون ، إذْ قدرهم بما ضيَّعوا من حقّه ، واجترءوا عليه في ركوب نهْيه ، وليستخرج من الصادقين صدق الجواب فيقبله منهم ، ويؤمّنهم ما كانوا به خائفين ، ويسرهم بقبوله منهم عوضًا مما كانوا في الدنيا من رَدِّه مشفقين ، ولكن لا بدّ – إذا أرادوا أن يقرءوا كتبهم ، ويبتدئ الله في مساءلتهم – أن تزهقهم الهيبة العظمى ، والمخافة الكبرى .

هذا ابن مريم عليه السلام ، يقول له الجليل يوم القيامة : ﴿ ... **أأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ** ... ﴾ الآية [المائدة : ١١٦] . فرُوِي في الحديث أنه يزول كل معضل منه على حبالة ، ومما يدلّ على صدق الحديث في ذلك قوله : ﴿ **إِنْ كُنتُ قلتُهُ فقدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ، هذا جواب ذاهل ، لا يدري ما يجيب ، قال أبو ميسرة : لم يدرِ لعلّه قاله ، فقال : ﴿ **إن كنتُ قلتُهُ فقدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ، ثم بدا إليه عقله ، فقال : ﴿ **مَا قلتُ لهمْ إلّا مَا**

أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ .

وهذه جماعة الرسل يقول الله لهم : ﴿ **ماذا أُجِبْتُمْ** ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أنت عَلَّامُ الغيوبِ** ﴾ . [المائدة : ١٠٩] .

فيا نفس ويحك ، اعملي علىٰ أنه قد رحم شكواك ، فيقلكِ عن بلائك ، أين توارين - ما دمتِ في الدنيا - من نظره ، مع ما يَعلم من قبائحك التي سلفتْ منك ؟! وأين تزوغين ، وأين تحيدين غدًا عن العرض عليه ، وتراه جميع مساوئك ، واستماع كلامك بذكر فضائحك ؟

ويحك ، فلا تعيشي في الدنيا إلا بحمده ، ولا تتقلّبي في أَحوالك إلَّا حسرة ، ولا تصبحي ولا تمسي إلا خَجِلة من توقُّعك للمتقلّب إلى الوقوف بين يديه ، والسؤال منه إليك مع - والله - أَحوالك قبل السؤال منه في يوم النشور . فأَين قلبك حينئذ يا جاهل ؟ وأَين فؤادك يا غافل ؟ لو يقع المنىٰ أن لا تكوني من المخلوقين ، أَو إذا كنتِ خُلقتِ أن لا تكوني من المبعوثين ، لَكنتِ إلى ذلك تروحين ، وإليه تفزعين .

أخي ، مَن كرُمَتْ نفسه عليه ، لم يكن للدنيا عنده قدْر .

إنَّ الله جعل الجنة بمثابة لأنفسنا فلا نبيعها بغيرها ، وأعظم الناس قدرًا مَن لم يرِد الدنيا كلها لنفسه خطرًا .

قال مسعر بن كِدام : مَن أهمّته نفسه ، تبيَّن ذلك عليه .

يا نفسُ ويحكِ طالَ ما	أبصرتِ موعظةً ومَا
نفعتكِ فاخشَي وانتهي	وعليكِ بالتقوىٰ كما
فعَل الأُناسُ الصالحو	ن وبادري فلربَّما
سَلِمَ المبادِرُ واحذري	يا نفسُ مِن سوفَ فمَا
خُدِعَ الشقِيُّ بمثلِهَا	إيّاكِ منها كلما

ناجتْ مكايدُها ضميـ رَكِ إنَّمـا هي إنَّمـا
خطرتْ وكمْ قتَلَتْ وأهْـ ـلَكَـتِ النفـوسَ وقلَّمـا
تُغـني أمانيهـا إذَا حضَـرَ الردىٰ فكأنَّمـا
لـم يحَيَ مَنْ لاقىٰ مَنِـيَّـتَهُ فيَـا عجبًا أمَـا
في ذاكَ مُعْتَـبَرٌ ولا شـافٍ يُبَصِّرُ مِـن عَمَـىٰ
يا ذَا المُنَىٰ يا ذَا المُنَىٰ عشْ مـا بـدا لكَ ثمَّ مَـا

يا سكرانَ الهوىٰ ، أمَا آن الصحو ؟ يا ساطرًا قبحَ الخلاف ، أمَا حان المحو ؟ وقلْ : يا نفس ، الهوىٰ عليّ وليس لي ، فَلِمَ أريد حياتكِ وتريدين مقتلي ؟!

ما حَظِي الدينارُ بِنقْشِ اسـمِ الملِك ، حتىٰ صَبرتْ سبيكتُه علىٰ التردُّد إلى النار ، فنفتْ عنها كلّ كَدَر ، ثم صَبرتْ علىٰ تقطيعها دنانيرَ ، ثم صبرتْ علىٰ ضربها على السِّكّة ، فحينئذ ظهرَ عليها رقم النقش ﴿ **كَتَبَ فِي قلوبِهِمُ الإيمانَ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

كَمْ أحملُ في هواكَ ذلًّا وعَنَا كَمْ أصبرُ فيكَ تحتَ سقَمٍ وضَنَا
لا تطردني فليسَ لي عنكَ غِنَا هٰذِي نفسي إذا أردتَ الثمنا

من طلب الأنْفَسَ هجر الألَذَّ ، مَنِ اهتمَّ بالجوهر نسي العَرَض ، يا صفراء يا بيضاء ، غُرّي غيري .

مِن أجلِ هواكمْ عشقتُ العِشْقَا قلبي كَلِفٌ ودمعتي ما تَرْقا
في حُبِّكم يهونُ ما قدْ ألقىٰ ما يحصلُ بالنعيمِ مَن لا يشقىٰ

أخي ، حالتْ غمايمُ الهوىٰ بيننا وبين شمس الهدىٰ ، وغدا ما في يومنا يُنسينا غدًا ، حتىٰ كأنّ الرحيل حديث خُرافة ، أو كأَنَّ الزاد يفضل عن المسافة .

اسمع يا مقهورًا بغلبة النفس ، صلّ عليها بسوط العزْم ؛ فإنها إنْ علمتْ جدَّك استأثرتْ لك ، امنعْها ملذوذ مباحها ، ليقع الصلح على ترْك الحرام ، فإذا ضجّت لطلب المباح ﴿ **فإمَّا منًّا بَعْدُ وَإمَّا فداءً** ﴾ [محمد : ٤] ، الدنيا والشيطان خارجيّان : خارجان عليك ، خارجان عنك ، فالنفس عدوٌّ مباطن .

ومن آداب الجهاد : ﴿ **قاتِلُوا الذينَ يَلُونكم** ﴾ [التوبة : ١٢٣] ... ليس مَن بارَز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ ، ما دامت النفس حيّةً تسعى ، فهي حيّةٌ تسعَى ، أقلُّ فعلٍ لها تمزيق العمر بكفّ التبذير ، كالخرقاء وجدتْ صوفًا ... اخْلُ بها في بيت الفكر ساعة ، وانظر : هل هي معك أو عليك ؟... نادِها بلسان التذكرة : يا نفسُ ، ذهب عرش بلقيس ، وبلي جمال شيرين ، وتمزّق فرش بوران ، وبقي نسكُ رابعة ؛ يا نفسُ ، صابري عطشَ الهجير ؛ يحصل الصوم ، وتحزَّمي تحزُّم الأجير ؛ فإنما هو يوم .

جدّ في الجدّ قدْ تولَّى العمرُ ... كمْ ذَا التفريطُ قدْ تدانَى الأَمْرُ

أقبلْ فعسى يُقبَلُ منكَ العذرُ ... كمْ تبني كمْ تنقُضُ كمْ ذَا الغَدْرُ

أخي ، الشهوات تغرّ وتعرّ ، وتمرّ عيشَ العواقب وتَمُرّ ، وتبكي عين الندم أضعاف ما تسرّ ، ألَا يقظٌ ؟ أَلَا حَذرٌ ؟ أَلَا حرٌّ ؟

يا صبيانَ التوبة ، الطفل لا يصبر عن الرضاع ساعة ، فإذا صار رجلًا صبَر عن الطعام يوميْن .

يا هذا ، إذا صُبّ في القنديل ماء ، ثم صُبَّ عليه زيتٌ ، صَعِدَ الزيتُ فوق الماء ، فيقول الماء : أنا ربّيتُ شجرتَك ، فأين الأدب ؟ لِمَ ترتفع عليّ ؟ فيقول الزيت : أنت في رضراض الأنهار ، تجري على طريق السلامة ، وأنا صبرتُ على العصْر ، وطحْن الرَّحَى ، وبالصبر يرتفع القدْر . فيقول الماء : إلَّا أني أنا

الأصل . فيقول الزيت : استْر عيبك ؛ فإنك لو قارنتَ المصباحَ انطفأ .

يا بعيدًا عن المجاهدة ، قد اقتسم الرعيل الأول النفل ، أما ترىٰ أسلاب الهوىٰ ، كيف يبيعها أربابُها في سوق الافتخار بالنضّ ؟[1]

﴿ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف : ٥٢] .

وفـؤادي كلّمـا عاتبتُـهُ ... في مدىٰ الهجرانِ يبغي تَعَبي
مـا أراهُ الدهـرَ إلّا لاهيًا ... في تمـاديهِ فقـدْ بـرّحَ بي
يا قرينَ السُّوءِ ما هذَا الصِّبا ... فـني العمـرُ كـذا في اللهِ
نفسي ما كنتِ ولا كانَ الهوىٰ ... راقـبي اللهَ وخـافي وارْهَـبي

أيّتها النفس ، أقلعي عن الجُنَاح وتوبي ، وارجعي إلى الصلاح وأوبي . أيتها النفس ، قد شان شاني عيوبي . أيّتها الجاهلة ، تكفيني ذنوبي .

يا ويحَ نفسي مِن تتابُعِ حَوْبتي ... لو قد دعاني للحسابِ حسيبي
فاستيقظي يا نفسُ ويحَكِ واحذري ... حـذرًا يهـيّجُ عَـبْرتي ونحيبي
واستدرِكي ما فاتَ منكِ وسابقي ... سطَواتِ موتٍ للنفوسِ طَلُوبِ
وابكي بكاءَ المستغيثِ وأَعْولي ... إعـوالَ عـانٍ في الوَثاقِ غـريبِ
هذا الشبابُ قدِ اعتللتُ بلهوهِ ... أفليسَ ذا يا نفسُ حينَ مشيبي
هـذا النهـارُ يكـرُّ ويحكِ دائبًا ... يجري بصرْفِ حوادثٍ وخُطوبِ
هـذا رقيبٌ ليـسَ عـني غـافلًا ... يُحصي عليّ ولو غفلتُ ذنوبي
أوَ ليسَ مِـن جَهْـلٍ بأني نائمٌ ... نومَ السـفيهِ ومـا ينـامُ رَقيـبي

قال أبو يزيد : رأيتُ الحقَّ في المنام ، فقلت : يا ربّ ، كيف أجدك ؟ قال : فارِقْ نفسك وتعالَ .

جاء رجل إلى أبي عليّ الدقّاق ، فقال : قد قطعتُ إليك مسافة .

---

(١) القليل .

فقال : ليس هذا الأمر بقطع المسافات ؛ فارِق نفسَك بخطوة ، وقد حصل لك مقصودك ، لو عرفتْ منك نفسُك التحقيق لَسارتْ معك في أصعب مضيق ، لكنها ألفت التفاتَك ، فلما طلبتَ قهرَها فاتَك ، هلّا شددتَ الحيازم ، وقمتَ قيام حازم ، وفعلتَ فِعْلَ عازم ، وقطعتَ علىٰ أمر جازم ، تقصد الخير ، ولكن ما تلازم .

ويعرفُ أخلاقَ الجبانِ جوادُهُ   فيجهــدُهُ كَـرًّا ويُرهِبُـهُ ذُعْـرَا
ومَن يحل تطلابَ المعالي بصدرِهِ   يجدْ حُلْوَ ما يُعطاهُ مِنْ غيرِهَا مُرًّا

حريم العزم الصادق حرامٌ على المتردّد ... متىٰ تحزم العزم هزم ، لو رأيتَ صاحب العزم وقد سرىٰ - حين رقدتِ السراحِينُ - بهمّةٍ تحلّ فوق الفرقد ، فلنفسه نفاسة ، ولأنفه أنفة ... سهمُ الشهمِ **مُفوَّقٌ** فوق عرضة الغَرَض .

كان « الفضيل » ميّتًا بالذنوب ، و« ابن أدهم » مقتولًا بالكِبْرِ ، و« السبتيُّ » هالكًا بالملْك ، و« الجُنَيْد » من جيّد الجنْد ، **فنُفِخ في** صور المواعظ ، فدبَّتْ أرواح الهدىٰ في موْتىٰ الهوىٰ ، فانشقّتْ عنهم قبور الغَفْلة ، وصاح إسرافيل الاعتبار : ﴿ **كَذٰلِكَ يُحيي اللهُ الموتىٰ** ﴾ ، إنما سمع **الفضيل** آية ، **فذلَّتْ نفسُه لها واستكانت ، وهي : (كانت) ، إنما زُجِر** ابن أدهم بكلمة كلَمَتْ قلبَه فانقلبَ ، هايفٌ[1] عاتَبه ولَام ، أخرجه من بلخ إلى الشام ، كانت عقدة قلوبهم بأنشوطةٍ ومَسَد[2] ، قلبك كله عقد ، لاحَت للقوم جادّة السلوك ، فقالوا : ﴿ **ربُّنا اللهُ ثم استقامُوا** ﴾ ، هٰيهات منك غبارُ ذاك الموكب ، ركبوا سفين العزم ، فهبّت لهم رياحُ العوْن ،

---

(١) العطشان الذي لم يصبر علىٰ العطش .

(٢) حبل من ليف .

فقطعوا بالعلم لُجَجَ الجهل ، فوصلوا إلى إقليم أرض الفَهْم ، فأرسلوا علىٰ ساحل بلد الوصل . إذا استصلح القدَر أرضَ قَلْبٍ ، قَلَبها بمحراث الخوف ، وبذر فيها حَبّ المحبّة ، وأدار لها دولاب العين ، وأقام ناطور المراقبة ، فتربّى زرع التقَىٰ علىٰ سُوقه ؛ أصفهم لمن ؟! أصفهم عند من ؟ أنثرُ الدرّ علىٰ من ؟!

بلّغْ سلامي بالغويرِ جيرةً قلبي وإنْ حالُوا إليهمْ تائِقْ
فارقتُهم كَرْهًا وليتَ انني للروحِ منْ دُونهمُ مُفَارِقْ
ولستُ أنساهمْ وإنْ تقطَّعَتْ بالبعدِ فيما بيننا عَلايقْ

يا نفس ، عند ذكر الصالحين تبكين ، وعند شرح جدّهم تئنِّين ، وإذا تصوَّرت طيبَ عيشهم تحنّين ، فإذا عرفتِ قيامَهم بالخدمة تنكّبين !

أمِن خُفوق البرْقِ تُرزمينا حنّي فمَا أمنعُكِ الحنينَا
سيري يمينًا وسراك شامةٌ فضــلة مــا تتلفّتينــا
نعـمْ تشتاقينَ وأشـتاقُ لَهُ ونُعلنُ الوجـدَ وتكتُمِينا
فأينَ منّا اليومَ أو منكِ الهوىٰ وأينَ نجــدٌ والمغورينـا

لقي بعض الجند إبراهيم بن أدهم في البريَة ، فقال له : أين العمران ؟ فأومأ بيده إلى المقابر ، فضربه فشجَّ رأسَه ، فقيل له : هذا ابن أدهم . فرجع يعتذر إليه ، فقال له إبراهيم : الرأسُ التي يحتاج إلى اعتذارك تركتُه ببلخ .

ومرّ رجل بابن أدهم وهو ينطر[1] كُرْمًا ، فقال : ناولني من هذا العنب . فقال : ما أذِنَ لي صاحبه . فقلب السوط وضرب رأسه ، فجعل يطأطئ رأسه ويقول : اضرب رأسًا طالَمَا عصىٰ الله .

---

(١) أي : يحرس أشجار عنب .

واأسفاه من حيوةٍ علىٰ غرور ، وموت علىٰ غفلة ، ومنقلَب إلى حسرة ، ووقوف يوم الحساب بلا حجّة .

يا هذا ، مثّلْ نفسَكَ في زاوية من زوايا جهنم ، وأنت تبكي أبدًا ، وأبوابها مغلَقة ، وسقوفها مطبَقَة ، وهي سوداء مظلمة ، لا رفيق تأنس به ، ولا صديق تشكو إليه ، ولا نوم يريح ، ولا نفس .

يا هذا ، استوطأتَ مهاد الكسل ، وإبَرَ النحل دون العسل ؟

قيل لبعض أهل الرياضة : كيف غلبتَ نفسك ؟ فقال : قمتُ في صفّ حربها بسلاح الجد ، فخرج مرحب الهوىٰ يدافع ، فعلاه عليُّ العزْم بصارم الحزم ، فلم تمضِ ساعة حتى ملكتُ خَيْبَر .

وقيل لآخر : كيف قدرتَ علىٰ هواك ؟ فقال : خدعتُه حتىٰ أسرته ، واستلبتُ عُوده فكسرتُه ، وقيدتُه بقيْد العزْلة ، وحفرتُ له مطمور الخمول في بيت التواضع ، وضربتُه بسياط الجُوع فَلَانَ ، يا فلانُ ، ألك في مجاهدة النفس نيّة ، أم النيّة نيّة ؟ أتعبتَني وأنت أنت .. إلى متىٰ تجول في طلب هجول[1] ؟! ما عزّ يوسف إلا بترك ما ذلّ به « ماعِز » .

أخي ، الهوىٰ مطمورة ضيقة في حبس وَعِر ، ومذْ خُلق الهوىٰ خُلق الهوان ... لا يتصرف الهوىٰ إلا برَبْعِ قلبٍ فارغ من العلم . الجهلُ خندق يحول بين الطالب والمطلوب ، والعلمُ يدلّ علىٰ القنطرة ... كتابة العلم في ليلِ الجهل تفتقر إلى مصباح فطنة ، ودُهْن الذِّهنِ غالٍ ... ما قدر لصٌّ قطُّ علىٰ فَطِن ... ومتىٰ نام حارس الفكْر انتبه لصُّ الهوىٰ ... مَن ثبت قلبه في حرْب الشهوات ، لم يتزلزل قدمه ... أوُل ما ينهزم من المهزوم عقله ...

---

(١) جمع هجل : وهي المفازة الواسعة .

ما دمتَ في حرب العدو فلا تبالِ بالجراح ؛ فإنه قد يصاب الشجاع ، إنما المهادنة دليل الذلّ .

أين عزيمة توبة « ماعِز » ، لا عزيمة « توبة »[1] ؟! وأين همّ « أويس » من غمّ « قيس »[1] ؟!

يا أطيار القلوب ، إلى كم في مزبلة الحبس ؟ اكسري بالعزم قفصَ الحِرْص ، واخرجي إلى فضاء القدس ، روحي خماصًا من الهوىٰ تعودي بِطانًا من الهدىٰ ... بين أبي الحركة وأُمِّ القصد : ينتج ولد الظفر ... لا يُنال الجسيمُ بالهُوَيْنَىٰ ... حمْل النفس علىٰ حمْل المشاقّ مدرجة إلى الشرف ... واعجبًا مِن توقُّف الكسالىٰ والدرُّ يُنثر ، أشهودٌ كغيابٍ ؟! أَكانونُ في آب ؟! الحرب خصام قائم ، وأنت غلام نائم ، ادخلْ بسلامتك ، لابسَ لامتِك ... ليس في سلاح المحارب أحد من نبلة عزم ... أجرأ الليوث أجرُّها للصيود ...

ليسَ عزمًا ما مرضَ العزمُ فيهِ ليسَ همًّا ما عاقَ عنهُ الظلامُ

مَن أراد من العمال أنْ يعرف قدره عند السلطان ، فلينظر ماذا يُوليه من العمل ، وبأيّ شغل يشغله ... الأرواح في الأشباح ، كالأطيار في الأبراج ، وليس ما أعد للاستفراخ ، كما هي للسباق ... ما أظنُّ الضعف إلَّا في الوضع ... ضعف عيْن الخفّاش ليس برمَد ، وحِدّة ناظر الهدهد خلقة ... مصابيح القلوب الطاهرة - في أصل الفطرة - منيرة قبل الشرائع ، يكـاد زيتُها يضيء ... وحّد قُسٌّ ولم يَر الرسول ، وكفر ابن أُبيّ وقد صلّىٰ معه ... مع الصبّ ريٌّ يكفيه ولا ماء ، وكم من عطشان في الموجة ...

---

(١) هو : توبة الحميري صاحب ليلىٰ الأخيلية ، وهذا قيس بن الملوّح صاحب ليلىٰ العامرية .

إذا سبق الإنعام في القِدم ، فذلك غِنَىٰ الأبد ... ارحموا مَن طلوعُ الشمس عنده ليلٌ ...

إخواني ، ذُودوا هممكم عن مرعىٰ المنىٰ ؛ فإنه يزيدها عجفًا ، ولا تُولّوا الهوىٰ علىٰ ميدان الأبدان ؛ ﴿ **إني أخافُ أن يبدّلَ دينَكُمْ أَوْ أن يُظْهِرَ في الأرضِ الفَسَادَ** ﴾ [غافر : ٢٦] . الهوىٰ وثن ينصب في جاهلية الشباب ، فإن صحَّ إيمان العزم ، جعل أصنام الشهوات جُذَاذًا .

يا معشر الشباب ، زنوا حُلوَ المشتهىٰ بمُرِّ العقاب ، يَبِنُ لكم التفاوُت .

كمِ اصْطبارٌ علىٰ ضَيْم ومنقَصَة ... وكَمْ علىٰ الذلِّ إقرارٌ وإذعانُ
ثوروا لها ولْتَهُن فيها نفوسُكُمُ ... إنَّ المنـاقبَ للأرواحِ أثمـانُ

لّما عرَف القوم قدْر الحياة ، أماتوا فيها الهوىٰ فعاشوا ، انتهبوا بأكفّ الجدّ من الزمن ما نثره زمن البطالة .

وركْبٍ سَرَوْا والليلُ فلقُ رواقهِ ... علىٰ كلّ مغبرِّ الطوالِعِ قاتمِ
حَدَوْا عَزَمَاتٍ ضاقتِ الأرضُ بينها ... فصَارَ سراهُمْ في ظهورِ العزائمِ
تُريهِمْ نجومُ الليلِ ما يبتغونَهُ ... علىٰ عاتقِ الشّعْرِ وهامِ النعائمِ
إذا طرَّدوا في معْركِ الجدّ قصَّفُوا ... رماحَ العطايا في صدورِ المكارِمِ

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصد ، وحلَتْ لهم مرارات البلىٰ حبًّا لعواقب السلامة ، فيا بشراهم يوم ﴿ **هٰذَا يومُكُمْ** ﴾ .

قِفْ بالديارِ فهـذي آثارُهُـمْ ... تبكي الأحبَّةَ حَسْرةً وتشـوُّقَا
كَمْ قدْ وقفْتُ بها أُسائل مخبِرًا ... عن أهلِها أو صادِقًا أو مُشْفِقَا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسْمها ... فارقتَ مَن تهوىٰ فعَزّ الملتَقَىٰ

يا رُبوع الأحباب ، أين سُكّانُك ؟ يا موطن الألباب ، أين قُطّانُك ؟ يا جواهر الآداب ، أين خزّانُك ؟ واأسف المتقاعد عنهم ، واحسرة البعيد منهم !

أول قدم في الطريق ، بذْل الروح ، هذه الجادّة فأين السالِك ؟ هذا قميص يوسف ، فأين يعقوب ؟ هذا طور سيناء ، فأين موسىٰ ؟ يا جنيد ، احضر ، يا شبليُّ ، اسمع .

بِدَمِ المُحِبِّ يُباعُ وَصْلُهُمُ فمنِ الذي يَبْتَاعُ بالثمنِ

يا مَنْ نيّتك في الخير نيّة ، لو أنضجتْها نيرانُ خوف أو شوق ، لَانتفعتَ بها ، لو قد طلعتْ شمسُ العزيمة في نهار اليقظة ، لانبعث عالم النشاط في صحراء المجاهَدة ، واعجبًا لهمّتك ! أيُسأل عن الهلال ابنُ أمّ مكتوم ؟! ويُستملَىٰ الفصاحة من باقل ؟! وينتظر الوفاء من عرقوب ؟!

يا مَن أخذ الهوىٰ بأزمّته ، وأمسك الردىٰ بلمّتِهِ ، يا رهينَ ديونٍ تعلّقتْ بذمّته ، هذا أوانُ جدّك إنْ كنتَ مجدًّا ، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعِدًّا ، رُضْ مُهْرَ النفس ، يتأتَّ ركوبُه ، تلمّحْ فجر الأجْر ، يَهُن ظلامُ التكليف . رحلْتَ رحلة ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ ، ومطرودُ النوم في حَبْس الرقاد ، فما فكّ عنه السجّان قيد الكَرَىٰ ، حتىٰ استقرّ بالقوم المنزل ، فقام يتلمّحُ الآثار بباب الكوفة ، والأحباب قد وصلوا إلى الكعبة .

مــن يَطّــلعْ شَــرفًا هــل روّح الرعــيانُ بالإبلِ
أمْ قَعْقَعتْ عمُدُ الخيامِ أمِ ارْ تفعــتْ قبــابُهُمُ علىٰ البـذْلِ
أمْ غــرَّدَ الحــادي بقــافيةٍ منهــا غُــرابُ البيْنِ يَستمــلي
ما مرّ ذو شجنٍ يُكتّمُـهُ إلّا أقــولُ متــيّمٌ مِثْــلي

أخي ، يا مَنْ قدْ أخذ الهوىٰ بأزمّته ، وأمسك الردىٰ بلمّتِهِ ، يا رهين ديونٍ تعلّقتْ في ذمّته ، هـذا أوان جدّك إنْ كنت مُجدًّا ، هـذا زمان استعدادِك إنْ كنتَ مستعدًّا .

يا نفسُ قدْ عزّ المرادُ فخُذي إنْ كنتِ يومًا تأخذينَ أوْ ذَري

نهزة مجدٍ كنتِ في طِلابِها لمثلِها ينصفُ ساقِي مِئْزَرِي
عمرُ الفتىٰ شبابُهُ وإنّما آونةُ الشيبِ انقضاءُ العُمْرِ

رُضْ مُهْرَ النفسِ يتأتَّ ركوبُه ، أمِتْ زئبقَ الطبع يمكن استعماله .

ويحك ، إنما يكون الجهاد بين الأمثال ، ولذلك منع من قتْل النساء والصبيان ، فأيّ قدْر للدنيا ، حتىٰ يحتاج قلبك إلى محاربةٍ لها ؟! أما علمتَ أن شهواتها جِيَفٌ ملقاة ؟! أفيحسن بباشق الملك أن يطير عن كفِّه إلى ميتةٍ ؟! مهلًا ، ﴿ **لا تمدَّنَّ عينيْكَ** ﴾ ... لو علمتَ أن لذَّة قهْر الهوىٰ أطيبُ من نيْله ، لَمَا غلَبَكَ ، أما ترىٰ الهرّة تتلاعب بالفأرة ولا تقتلها ، ليبين أثر اقتدارِها ؟! وربّما تغافلتْ عنها ، فتُمْعن الفأرة في الهرب ، فتثبُ ، فتدركها ولا تقتلها ، إيثارًا للذَّة القهْر علىٰ لذَّة الأكل ... مَن ذبح حنجرةَ الطمع بخنجر اليأس ، أعتق القلب من أسر الرِّقِّ ... مَن ردَم خندق الحرص بسكر القناعة ، ظفر بكيمياء السعادة ... مَن تدرّع بدرْع الصدق علىٰ بدن الصبر ، هزم عسكر الباطل ... من حصَد عشب الذنوب بمنجل الورَع ، طابتْ له روضة الاستقامة ... من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت ، وجد عذوبة الراحة في القلب ... مَن ركب مركب الحذر ، مرّت به رخاء الهدىٰ إلى رجاء النجاة ... مَن أرسىٰ علىٰ ساحل الخوف ، لاحتْ له بلاد الأمن ... ألَا عزيمة عُمَرية ؟! ألا هجرة سلمانية ؟!

ولي قوادمُ لو أني جُذِبتُ بها لأنهضتْني ولكنْ أفرُخي زَغبُ

غمّضْ عينَيْك علىٰ الدواء يعمل ، وافتحْها لرؤية الهدىٰ تُبصر ... حجّرْ المعصية تطحطح إناء القلب ... وضبة التوبة شعاب ... يا مَن عزمُه في الإنابة جزر بلا مدٍّ ، وقفتْ سفينة نجاتك ... ليلُ كَسَلِكَ قد طبقَ آفاق التردُّد ، وقد طلبتْ فيه أطيار الهمّة أوكارَ الدعة ، فلو قد طلعت شمس العزيمة

في نهار اليقظة ، لانبثّ عالم النشاط في صحراء المجاهدة ... يا صبيان التوبة ، تزوَّدوا للبادية ، تأهَّبوا لحاجر ، انعلوا الإبل قبل زرود ، ولا تنسوا – وقتَ تناوُل الزادِ – جِمالَكم .

والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهْمِلْهُ شبّ علىٰ حبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تفطِمْهُ يَنْفَطِمِ

أخي ، اتركِ الهوىٰ محمودًا قبل أن يتركك مذمومًا .

مرّ الجنيدُ برجلٍ يقول :

منازلٌ كنتَ تَهْواهَا وتألفُهَا أيَّامَ أنتَ علىٰ الأيامِ مَنصورُ

فبكىٰ الجنيدُ بكاءً شديدًا ، وقال : « ما أطيبَ منازلَ الأُلفة والأُنْس ، وأوحشَ مقاماتِ المخالفة ، لا أزال أحنُّ إلىٰ أول بدْء إرادتي وجدّة سعْيي » .

فلو شريتُ بعمري ساعةً سَلَفَتْ مِنْ عيشتي معكُمْ ما كانَ بالغالي

يا هذا ، مرعىٰ المشتهىٰ هشيمٌ ، والعجْز شريك الحرمان ، والتفريط مضارب الكسل ، ديجورُ الجهل مُعْتِمٌ ، وسُؤْر الهوىٰ مغرق ، روْضُ اللهو وَبيٌّ ، وغديرُ اللذات غدْر .

يا هذا ، المجاهدة حرب ، لا يصلح لها إلّا بطل .

مـوْتُ النفـوسِ حياتُهَـا مَـنْ شـاءَ أَنْ يَحْـيَا يمـوتْ

يا هذا ، إذا هممتَ بخير فبادرْ ؛ لئلّا تُغلب ، وإذا هممتَ بشرٍّ فسوِّفْ هواك ؛ لعلّك تَغْلِب ، ثَقِّفْ نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك ؛ فإن سياسة الأخلاق مراقي المعالي .

يا أطفالَ الهوىٰ ، أين أنتم والرجال ؟! .

قال أبو يزيد : كنتُ اثنتي عشرة سنةً حدّادَ نفسي ، وخمسين سنة مرآةَ قلبي ، ولقد أحببتُ الله حتىٰ أبغضتُ نفسي .

وقال : ما زلتُ أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي ، حتى سقتُها وهي تضحك .

ما زلتُ أُضحك إبْلي كُلَّمَا نظرتْ إلى مَنِ اختُضِبَتْ أخفافُها بدمِ
من اقتضى بسوى الهنديّ حاجتَهُ أجابَ كلَّ سؤالٍ عن هلْ بِلَمِ

يا بعيدًا عنهم ... يا مَن ليس منهم ، ألكَ نيّة في لحاقهم ؟ اسرجْ كميتَك ، واجرر زمامَك ، يقف بك على المرعى ، يا من يستهول أحوال القوم ، تنقّل في المراقي تَعْلُ .

بانُوا وخُلّفتُ أبكي في ديارِهِمْ قُلْ للديارِ سقاكِ الرائِحُ الغادِي
وقلْ لأظعانِهِمْ حُيِّيتِ من ظَعْنٍ وقلْ لَوادِيهم حيّيتَ من وَادِ
أنا العبدُ الذي كَسَبَ الذُّنُوبَا وَصَدَّتْهُ الأماني أنْ يَتُوبَا
أنا العبدُ الذي أضحى حزينًا على زلّاتِهِ قَلِقًا كَئِيبَا
أنا العبدُ الذي سُطِرَتْ عليهِ صحائِفُ لم يَخَفْ فيها الرَّقِيبا
أنا العبدُ المسيءُ عصيتُ سِرًّا فما لي الآنَ لا أُبدِي النحيبا
أنا العبدُ المفرِّطُ ضاعَ عُمْرِي فلمْ أرْعَ الشبيبةَ والمَشِيبَا
أنا العبدُ الغريقُ بِلُجِّ بحرٍ أصيحُ لَرُبَّما ألقى مُجيبَا
أنا العبدُ السقيمُ مِنَ الخطايا وقدْ أقبلتُ أَلتمسُ الطبيبا
أنا العبدُ المُخلَّفُ عن أناسٍ حَوَوْا من كلّ معروفٍ نصيبَا
أنا العبدُ الفقيرُ مَدَدْتُ كفّي إليكمْ فادفَعُوا عني الخُطُوبا
أنا الغدّارُ كمْ عاهدتُ عهدًا وكنتُ على الوفاء بِهِ كَذوبَا
أنا المقطوعُ فارحمْني وصِلْني ويَسِّرْ منكَ لي فَرَجًا قريبَا
أنا المضطرُ أرجو منكَ عَفْوًا ومَن يرجُو رضاكَ فلنْ يَخِيبَا
فيا أسفى على عُمرٍ تَقَضَّى ولمْ أكسبْ بهِ إلّا الذُّنُوبَا
وأحذرُ أنْ يعاجلني مَمَاتٌ يحيّر هَوْلُ مصرَعِهِ اللَّبِيبَا

ويا حزناهُ مِن حشْري ونشْري ... بيومٍ يجعـلُ الولـدانَ شِـيبَا
تفطَّـرَتِ السـماءُ بهِ ومـارَتْ ... وأصبحـتِ الجبـالُ بهِ كَثِيبَـا
إذَا مـا قمـتُ حَـيْرانًا ظَمِيئًا ... حَسيرَ الطـرْفِ عُـريَانًا سَليبَا
ويا خَجَلاهُ مِن قُبْحِ اكتسابي ... إذَا مَا أبدَتِ الصُّحُفُ العُيُوبَا
وَذِلَّة موقفٍ وحسـاب عَـدْلٍ ... أكـونُ بهِ على نفسـي حَسِيبَا
ويا حـذَراهُ مـن نارٍ تلظَّـى ... إذَا زفـرتْ وأقلقـتِ القُلـوبَا
تكـادُ إذَا بدتْ تنشـقُّ غَيْظًا ... علٰى مَن كان ظـلَّامًا مُريبَـا
فيا مَنْ مَدّ في كَسْبِ الخطايا ... خُطاهُ أمَا آنَ الأوان لِأَن تتوبَا

* * *